فريسة الاسد وهي تابعة لوثبة الاسد

فريسة الاسد

او

تاريخ الثورة الفرنسوية

تأليف

اسكندر دياس الكبير

ملخصة بقلم

فرح انطون

منشىء مجلة « الجامعة » في الاسكندرية

تتضمن في الحاشية تراجم بعض مشاهير الرجال الذين يرد ذكرهم
في سياق الكلام مع رسومهم

ثمن النسخة الواحدة عشرة غروش صاغ وتطلب من
ادارة مجلة الجامعة

الاسكندرية في ١ يوليو (تموز) سنة ١٩٠٢

الموضوع

هذه الرواية ثلاثة اقسام · القسم الاول سميناه « نهضة الاسد » وهو جزءان وقد اردنا بهذه التسمية نهوض الشعب الفرنسوي في ثورته الكبرى الى طلب حقوقه وتذكير الحكام بواجباتهم · والقسم الثاني « وثبة الاسد » وهو جزء واحد وقد اردنا بذلك وثوبه لاقتحام المظالم وكسر نير الاستعباد والاستبداد لما لم يُجدِ اللين والمسالمة نفعاً · والقسم الثالث « فريسة الاسد » وهو جزء واحد ايضاً وموضوعه افتراس الثورة الملك لويس السادس عشر والملكة ماري انطوانت قرينته وجميع النبلاء ومشاهير الرجال الذين حضروها

فهذه الاجزاء الاربعة اذاً هي تاريخ مفصل لجميع حوادث الثورة الفرنسوية الكبرى من اولها الى آخرها · ففيها ذكر اسباب الثورة وحوادثها واحدة واحدة وتاريخ رجالها العظام ورسومهم وتفصيل اعمالهم وغرائب نبوءات كاليوسترو الخيالية وعجائب التنويم المغنطيسي الذي كان يومئذ في بدء امره وتاثير الجمعيات السرية في فرنسا في ذلك الزمان ولاسيما الجمعية الماسونية وعشق الملكة وسط مشاغلها السياسية ثم فوز الشعب ومحاكمة الملك واعدامه ثم اعدام الملكة وما تخلل ذلك من الاضطرابات السياسية · وهذا كله ممزوج بحوادث غريبة وفكاهات في منتهى اللذة فيقرأ القارى تاريخ الثورة الفرنسوية — التي غيرت وجه العالم — وهو يحسب نفسه انه يقرأ قصة بسيطة

ومما لا يحتاج الى بيان ان هذا التاريخ هو اول تاريخ عن الثورة الفرنسوية يُنشر في اللغة العربية

الفصل الاول

﴿ كشف الستار عن احد المشروعين ﴾

تركنا الملك في الجزء الماضي يفتكر باعداد سبيل الفرار له ولعائلته على يد الجنرال دي بوليه. والملكة تعدُّ سبيل الفرار على يد « مونسيو » شقيق الملك والمركيز دي فقراس عامله. وتركنا كاليوسترو الرجل الهائل في دار قائمة في حي الجويفري عند المسيو بوزير ومدام اوليفا وقد صعد الى منزلها وراء غلام لها بعد ان اعطاه قطعة من الذهب. ووعدنا بتفصيل السبب الذي حمل كاليوسترو على قصد هذه الدار وانجازاً للوعد نقول

بعد ان دخل كاليوسترو على بوزير ومدام اوليفا وسلم عليهما صار يجول في المكان ليعرف حالة سكانه ثم وقف امام بوزير وسأله ضاحكاً ماذا تعمل الآن يامسيو دي بوزير فقال دي بوزير. انني اكتب. فقال كاليوسترو هل فرغتَ من حسابك. فقال الرجل مبهوتاً ومن قال لك انني احسب. فضحك كاليوسترو وقال انك تحسب حساباً موَّدياً الى المشنقة

فوثبت امرأة بوزير وارتجف بوزير نفسه. فصاحت به امراته ما هذا الحساب. ما هذا الحساب. فقال كاليوسترو وهو يضحك لا تسأليه يا مدام اوليفا فانه لا يوقف احداً على الحساب الذي يحسبه. ولكن انا اوقفك عليه. ان مونسيو شقيق الملك يدبر الآن موآمرة لتهريب الملك من باريز

فاجفل بوزير عند هذا الكلام وصار لونه شاحباً. اما كاليوسترو فانه اردف بقوله.

وزوجك المسيو دي بوزير هو من المشتركين بهذه المؤامرة . ولكن اشتراكه فيها وا اسفاه سيجعلك ارملة و يجعل ابنتك يتيمة

فاشتد غضب مدام دي بوزير على زوجها فصاحت به اهذه هي التجارة التي قلت انك ستربح منها ملايين . فبقي بوزير صامتاً . ثم انطلق لسانه وقال . فما هو غرض الكونت من قصده اياي اذا كان يقول انه عارف كل شيء

فضحك كاليوسترو وقال قصدي انقاذك ايها الرجل المسكين رفقاً بامراتك و ولدك . واعلم انني مطلع على سرك وقادر ان ادفعك الى المشنقة بكلمة واحدة فهل تحب ذلك ام تحب مصافاتي واطلاعي في كل يوم على تفاصيل المؤامرة

فلم يجد بوزير بدّاً من ذلك طمعاً بمال الكونت الذي يعرف سخاءه وفراراً من التهمة والمشنقة فاتفق مع كاليوسترو على ان يطلعه الحين بعد الحين على جميع تفاصيل هذه المسالة . اما الآن فقد قصّ عليه الخطة التي وضعها مونسيو لخطف الملك . وهذا اجمالها . قال

لقد استدانوا مليوني فرنك من احد الماليين الكبار وعزموا على خطف الملك الى بيرونه فحصلوا بذلك على المال . بقي الرجال فحصلوا عليهم ايضاً لان الجنرال لافاييت اصدر امراً بحشد جيش جديد لارساله الى البرابان (بلجيكا) التي ثار اهلها على النمسا وبين وذلك رغبة في مساعدة الثائرين فمتى تمّ حشد هذه الجنود تمكن الملك من استعمالهم . وفضلاً عن ذلك فانهم سيجمعون في فرساليا الفاً ومائتي فارس مدرب و يسوقونهم بالسر على باريز في الساعة الحادية عشرة مساء فيصلون اليها في الساعة الثانية بعد منتصف الليل و ينقسمون ثلاثة اقسام . قسماً يدخل من باب رول و يهجم لذبح المسيو بالي . وقسماً يدخل من باب شاليو ويهجم لقتل المسيو ناكار . وقسماً يدخل من باب غرنيل ويهجم لذبح المسيو لافاييت. ومتى ذُبح هؤلاء الرجال الثلاثة الذين هم اقطاب الثورة وعمادها يهجم الجيش الجديد الذي حُشد لنصرة البرابان على قصر الملك و يستولي عليه في مدة قصيرة لما لنا من الجواسيس بين رجاله . ثم ان بعض اعوان الملك يدخلون عليه بسرعة و يقولون . مولاي مولاي ان الشعب ثائر ثورة عظيمة في حيّ سنت انطوان فيجب ان تفروا في الحال . فان رضي الملك بالفرار كان به والا اختطفته الجنود بالرغم عنه واخذته الى سن دنيس

فقال كاليوسترو وهو يحك اذنه حسن حسن فامضِ في حديثك . فقال بوزير

فيلقى الملك في سان دنيس عشرين الف جندي تنتظره للانضمام الى جيش الفرسان

والى جنود البرابان فضلاً عن عشرين او ثلاثين الف جندي ماكي يمكن جمعهم على الطريق. ومن هناك ياخذون الملك باحتفال عظيم الى بيرونه

فقال كاليوسترو. وماذا يجدون في بيرونه. فقال بوزير يجدون عشرين الف جندي قادمين من فلاندرو بيكارديا وارتوى وشمبانيا و بورغونيا واللورين والالزاس والكمبريزي. وفضلاً عن ذلك فانهم يساومون الآن على جيش بالغ عشرة الآف جندي من السويسريين و١٢ الفاً من الساردبين فيبلغ بهم عدد الجيش الذي يكون مع الملك ١٥٠ الف جندي. فيهجمون حينئذ بهذا الجيش على باريز فيقطعون عنها ماء نهر السين من الجانبين فلا تلبث باريز ان تسلم اليهم من الظماء والجوع فيدخل الملك ظافراً الى عاصمة ملكه ويحل المجمع الوطني ويجلس على عرش اجداده كملك حقيقي

فقال كاليوسترو متهكماً: آمين. ثم نهض وقال اظنك يامسيو دي بوزير ككثيرين من كبار الخطباء الذين متى قالوا كل ما في نفوسهم عجزوا عن ان يزيدوا عليه كلمة واحدة. فهل بقي شيء في نفسك. فقال بوزير كلا فان هذا كل ما عندي الآن فمدّ كاليوسترو يده الى جيبه واخرج منها عشر قطع من الذهب والقاها اليه كسلفة لا كاجرة لان الاجرة لا تُستوفى الا بعد الفراغ من العمل. فتناول بوزير هذه السلفة وسال كاليوسترو اين اجدك متى احتجت اليك فقال كاليوسترو اطلب منزل البارون زانون فيدلوك عليّ فبهت بوزير وقال ان هذا البارون هو الذي اقرض «مونسيو» المليوني فرنك بواسطة المركيز ففراس فهل انت هو فقال كاليوسترو ضاحكاً نعم انا هو ولكني لا اذكر هذا الدين لكثرة الديون التي اعقدها

فعجب بوزير من رجل يدين مليوني فرنك ولا يذكر امرها. ثم فكر في نفسه فراى انه اصاب بتركه المستدين وانحيازه الى الدائن

وبعد ذلك خرج كاليوسترو من منزل بوزير وقد عرف كلما اراد معرفته

الفصل الثاني

الملك ومعلمه الحداد

مشروع الفرار الثاني

وبعد بضعة ايام قدم الى قصر الملك «المعلم كامين» الحداد الذي تقدم ذكره في احد الفصول السابقة . وكان يصحبه في هذه المرة فتى حسن المنظر ولكنه يلبس لباس خادم حداد

اما هذا الفتى فانه كان الكونت لويس دي بوليه المرسل من قبل ابيه المركيز دي بوليه لمحادثة الملك بشان فراره على ما تقدم في ختام الجزء الماضي

ولما دخل المعلم كامين على الملك احسن الملك استقباله وعهد اليه ان يتمّ عمل قفل كان قد شرع في صنعه وعجز عن اتمامه لصعوبة عمله. فرضي المعلم كامين بذلك بعد ثرثرة كثيرة حسب عادته ولكنه اشترط ان لا يقف احد على يديه ليعطيه ملاحظات فضحك الملك من هذا الشرط لاسيما وانه كان منطبقاً على رغائبه فخرج من معمل الحدادة الملكي وخرج معه الصانع الحداد فاختليا معاً في غرفة الملك

ولما استقر بهما المكان اخذا يبحثان في الامر الذي كان موضوعهما المهم فسأل الملك الشاب بوليه. ماذا قال والدك ايها الكونت عن المشروع الذي حادثه الكونت دي شارني عنه . فاجاب الشاب ان والدي يرى ان الامر في الامكان ولكنه صعب جدًّا . فقال الملك وما هي الطرق التي يختارها لانفاذ هذا المشروع فقال الشاب ان والدي اختار اربع طرق ولجلالتكم ان تختاروا واحدة منها. ثم ان الشاب ذكر للملك الطرق الثلاث الاولى. وهي (١) سفر الملك الى بيزانسون والشروع في حشد جيش هناك بمساعدة السويسريين (٢) السفر الى فالانسيين فيوافيه اليها المركيز دي بوليه مع جنوده (٣) الخروج من فرنسا في طريق ادرن او فلاندر النمساوية ثم العودة الى فرنسا بجيش عظيم

فقال الملك اني ارفض هذه الطرق الثلاث . فان بيزانسون بعيدة واخشى ان يوقفوني في الطريق واما فالانسيين فان بالقرب منها قائدًا ميالاً الى الديموقراطية كل الميل وهو المسيو روشمبو . واما الخروج من فرنسا فلا ارضى به ابدًا لان الملك متى خرج من مملكته فقد لا يعود اليها. فما هي الطريقة الرابعة

فقال الشاب هي ان تسافر جلالتكم الى سيدان او مونمدي وتقيمون في احدى قلاعها

فتكونوا هنالك في وَسَط امين لان والدي صاحب الكلمة والقيادة في تلك الجهات

فقال الملك نعم وهذا هو الامر الذي كنت قد عولت عليه

فقال الشاب وهل عينتم جلالتكم الطريق التي عزمتم على سلوكها

فنظر الملك الى خريطة كانت على المائدة امامها وقال وهو يشير الى الخريطة نعم قد عزمت على السفر الى شالون عن طريق فارين من غيران اعرج على فردون · فقال الشاب الامر لجلالتكم

ولكن ما انتهى الملك والشاب الى هذا الموضع من الكلام حتى سمعا صوت اقدام على درج السلم فنهضا في الحال واتجها نحو الباب قبل دخول الداخل · ولما فتحا الباب وجدا المعلم كامين قادماً وهو يضحك فساله الملك هل اتممت عملك يامعلم كامين فقال كامين نعم قد اتممته وجئت لاخبر الملك بذلك فقال الملك هيا بنا اذًا نضع القفل في الخزانة التي صنعناه لها · اتبعني يامعلم كامين وانت يالويس ليكونت

وكان الملك ينادي الكونت لويس دي بوليه بهذا الاسم المقلوب « لويس ليكونت » لان كامين كان يحسب ذلك الفتى خادماً اعتيادياً

الفصل الثالث

﴿ رجل يتبع رجلاً كظله ﴾

وفي مساء هذا اليوم كان رجل لابساً لباس العملة يجول امام التويلري وينظر الى الداخلين والخارجين كأنه ينتظر احدًا · ولما صارت الساعة الثالثة خرج من التويلري من طريق الجسر الدائر رجل بلباس العملة وسار الى الشمال في الطريق الواسعة التي توازي نهر السين والتي يسمونها اليوم كورلارين · فما وقع نظر الرجل الاول عليه حتى ظهر من منظر وجهه انه قد وجد ضالته فاخذ يتعقبه من بعيد دون ان يدنو منه

وكان الرجل الثاني يضع يده من حين الى حين على جيبه كمن يفتقد شيئاً ثميناً موضوعاً فيها

وبينما هو سائر في طريقه مرَّ بحانة فمال نحو الباب كأن نفسه حدثته بالدخول اليها ولكنه على ما يظهر تغلب على هواه فرجع عن الباب وسار في طريقه · ثم وصل الى حانة ثانية فعاد الى نفسه التنازع بين الرغبة في الخمرة والرغبة عنها فتغلب على نفسه هذه المرة ايضاً · ثم وصل الى الحانة الثالثة فتغلب على هواه امام بابها ايضاً وسار في طريقه

غير انّ شدة المقاومة تضعف عزم الانسان ولذلك لم يعد ذلك الرجل قادرًا على التغلب على هواه بعد المرة الثالثة التي نفدت فيها كل قوته في المقاومة · ومن سوء حظه انه كان امامه بعد الحانة الثالثة حانات كثيرة يجب عليه المرور امام ابوابها · ومن اجل ذلك تغلبت رغبته في الخمرة على رغبته عنها فما وصل الى الحانة الرابعة حتى دخل اليها

ولما دخل الرجل الثاني الى الحانة تبعه الرجل الاول اليها وجلس بعيدًا عنه فيها · فطلب الرجل الاول زجاجة من الخمر فشربها ثم دفع ثمنها وراح في سبيله

فنهض حينئذٍ الرجل الاول وتبعه من بعيد

ولما وصل الرجل الثاني الى الحانة الخامسة دخل اليها ايضًا وشرب فيها كاسين ثم استانف السير · وهكذا في الحانة السادسة والسابعة والثامنة حتى وصل الى الحانة الاخيرة فشرب فيها كأسًا وابتاع زجاجة لتكون له رفيقة في الطريق ثم خرج منها والرجل الاول يتعقبه وهو اتبع له من ظله

وما زال الرجل الثاني سائرًا حتى وصل الى احد ابواب باريز عند حاجز باسي فخرج منه الى طريق فرساليا فتبعه الرجل الاول اليها

وما سار الرجل الاول بضع خطوات في هذه الطريق حتى مدّ يده الى الزجاجة ووضعها على فمه فشرب منها ثم سار في طريقه · وبعد بضع خطوات كرر هذا العمل فلم يبقَ في الزجاجة الا نصفها من الخمر فاخذت حينئذٍ حاملها هزة الطرب لان ما شربه من الخمر خفف روحه واثقل خطاه فصار يغني وهو سائر على مهل سيرًا غير مستقيم

فلما سمع الرجل الاول نشيد الرجل الثاني ارتاح اليه لانه علامة الامر الذي كان ينتظره

ثم انّ الرجل الثاني رفع الزجاجة الى فمه وافرغ فيه ما بقي فيها وسار في طريقه · ولكنه لم يسر بضع خطوات حتى تحول نشيده الى هذيان وتهديد فصار يقول وهو يتمايل مترنحًا «تبًا له ولها · آه · آه يسقونني خمرًا مغشوشة مع انني صديقهم القديم · فليجربوا مرة ثانية ويطلبوني لاصلاح الاقفال لخزائنهم · فانني سأقول له · رح ايها الملك وفتش عن غيري · آه آه لا ريب انهم سمموني»

ولما قال الرجل الاول هذا الكلام سقط على الارض خائر العزم دون ان يستطيع النهوض ثم غاب عن الحس وبقي ممددًا بين الوحول

وكأن الرجل الاول كان ينتظر هذا الامر · فانه ما تحقق ان الرجل الثاني قد سكن

وفقد الحس حتى اسرع اليه فوجده فاقد الوعي . واتفق حينئذٍ مرور مركبة هناك فنادى الرجل الاول سائقها وكلفه نقل رفيقه الى حانة بون دي سفر القريبة فنقلهما السائق اليها

الفصل الرابع

﴿ انما الصدفة نتيجة السعي ﴾

ولما دخل الرجل الاول الى هذه الحانة ومعه الرجل الفاقد الوعي بادر صاحب الحانة الى مساعدته وهو رافع قبعته في يده اكراماً وتعظيماً لزائره لانه عرفه . ثم انام الرجل الفاقد الوعي على مقعد فجلس الرجل الاول بازائه واخذ من جيبه زجاجة صغيرة فيها روح النشادر ووضعها على انف الرجل الثاني فتحرك بعد بضع ثوانٍ واخذ يهذي كما كان يهذي اولاً . فكان يقول « آه قتلوني. سمموني . تباً للذين يسممون صديقهم »

فقال الرجل الاول له كمن يحاول استجوابه في ذهوله : حقاً ان هذا امر فظيع

فقال الرجل الثاني ما اشد لؤمهم

فقال الرجل الاول : نعم ما اشد لؤمهم . غير اني من حسن الحظ كنت قريباً منك فانقذتك بان سقيتك دواء مقاوماً لفعل السم

فقال الرجل الثاني . نعم كان ذلك من حسن الحظ

فقال الرجل الاول ولكن بما ان جرعة واحدة غير كافية فتناول هذه الجرعة ايضاً

قال ذلك ثم صبَّ خمس او ست نقط من زجاجة النشادر التي كانت معه في كاس وسقاه اياها

فشربها الرجل الثاني . ولكن الجرعة لم تستقر في جوفه حتى صرخ باعلى صوته . ياقاتل ماذا صنعت بي

فقال الرجل الاول . لا تخف ياصاحبي فقد سقيتك شراباً ينقذ حياتك

فقال الرجل الثاني اذا كان ما سقيتني ينقذ حياتي فقد احسنت ولكن لا تسمِّ ذلك شراباً

ثم ان الرجل الثاني نظر الى ما حوله ليعرف المكان لعرف من نظره اليه انه في حانة بون دي سفر فقال . اذن قد اجتزت نصف الطريق

فقال الرجل الاول ضاحكاً ولكن الفضل في ذلك عائد اليَّ

فقال الرجل الثاني · وكيف ذلك · فقال الرجل الاول · كنت مارًا في طريقي وراءك فما شعرت الا برجل ممدد على الطريق فانحنيت لاراك فعرفتك في الحال يامعلم كامين الشهير

فقال المعلم كامين · ومن اين عرفتني فقال الرجل الاول · انسيت صاحبك الذي عرفك في هذه الحانة نفسها يوم عودة الملك من فرساليا الى باريز

فتامل كامين في وجهه ثم قال عرفتك عرفتك · اما انت صانع الاسلحة · فقال الرجل الاول نعم · فقال كامين كمل حديثك · فقال الرجل الاول الذي نسميه بعد الآن صانع الاسلحة · فلما رايتك ممددًا على الثرى التفت لارى مركبة فوجدت عربة نقل قادمة وهي مشحونة بالمواد الثقيلة · وكنت انت نائماً في طريقها فلو لم اكن هنالك لداستك عجلاتها وقتلتك لساعتك

فتنفس كامين الصعداء لهذا الكلام · اما صانع الاسلحة فقال · فخرجتُ بك عن الطريق وتركت عربة النقل تمرُّ ثم ناديت مركبة كانت سائرة وقلت للسائق خذنا الى حانة بون دي سفر فقال السائق ومن رفيقك قلت ان رفيقي رجل مشهور فدنا منك وجسَّ جيبك فوجد فيها قطعاً كثيرة من الذهب فقال لا استطيع نقله لان رائحة المشنقة تفوح من رجل يلبس هذه الملابس ويكون في جيبه قطع كثيرة من الذهب · فالظاهر ان هذا الكلام ساءك جدًا فصحت بالسائق هل انا سارق فاجابك السائق لا ريب في انك سارق والا فكيف حصلت على هذا الذهب الكثير فصحتَ به قائلاً : ان تلميذي الملك اعطاني اياها فدنوت حينئذٍ من السائق وافهمته كل شيء فرضي بنقلك الى هنا

فقال المعلم كامين · والعجب انني لا اذكر ذلك · فضحك صانع الاسلحة وقال لا بدع ان تنسى كل ما قلته في غيبوبتك · ولكن لماذا وضعت في جيبك هذا القدر من الذهب الذي القى الشبهة عليك

فتنفس كامين الصعداء وقال هذا اجرة عملي · فقال صانع الاسلحة وماذا عملت حتى استحققت كل هذا المبلغ فانه يجب ان يكون العمل الذي عملته في غاية الصعوبة

فانطلق هنا لسان كامين الثرثار من طبعه فاخذ يقول

تسالني ماذا عملت · انني عملت عملاً لم يقدر الملك نفسه على عمله · فانه ابتدأ بصنع قفل في منتهى الصعوبة فما كاد يصل الى نصفه حتى وقف وتعذر عليه اتمامه فارسل

يطلبني لاتمامه · فذهبت اليه فوجدته في معمله والقفل بين يديه · فقال لي كيف حالك يا كامين وكيف انت فقلت له انني جئت لاصلح القفل لا ليسألني الملك عن حالي ومالي تدعوني وحدي لاتم عملي · فضحك الملك وخرج مع خادمه الحداد الى غرفته · فداخلني ريب من امر هذا الخادم لاني كنت ارى في يديه البيضاوين ووجهه المشرق ما يدل على ان حاله ارقى من حال خدمة الحدادين · فاسرعت في عمل القفل حتى اتممته واصلحت خلله · ثم انسبت كالافعي قاصداً غرفة الملك لعلي اسمع في دخولي اليها شيئاً مما يحدث به ذلك الخادم

فازداد هنا انتباه الرجل الذي كان يسمع كامين فقال له وهل سمعت شيئاً

فقال كامين انني لم اسمع شيئاً من سوء الحظ لان خطاي كانت ثقيلة على السلم فسمعها الملك وقام في الحال مع الخادم الى الباب ففتحه وسألني ضاحكاً هل اتممت القفل يامعلم كامين · ولكني لما دخلت الى الغرفة رأيت على مائدة في وسطها خريطة فرنسا مبسوطة

فقال الرجل الذي كان يصغي اليه وهل لم تلاحظ شيئاً من امر هذه الخريطة

فقال كامين لم الاحظ فيها شيئاً سوى ثلاثة صفوف من الدبابيس كانت مصفوفة وممتدة من وسط الخريطة الى اطرافها كأنها صفوف جنود سائرة نحو الحدود في طرق مختلفة

فقال الرجل مملقاً كامين · حقاً انك ذو نظر ثاقب لا يفوته شيء وهل تظن ان الملك وخادمه كانا يشتغلان بملاحظة هذه الخريطة

فاجاب كامين لا ريب في ذلك لان الملك لما فتح الباب وخرج اليَّ كان في يده دبوس منها وهو ينظف به اسنانه على غير انتباه

فقال الرجل مظهراً التعجب حقاً يا صديقي انني لو اكتشفت في صناعتي امراً لما تركتك تدخل الى معملي لانك بلمحة واحدة تدرك اسراره ولكن ماذا صنعت بالقفل بعد اتمامه

فاجاب كامين وقد ارضاه اطناب رفيقه في الثناء عليه · بعد اتمام القفل قال لي الملك · قد اتممنا الآن يامعلم كامين جزءاً من عملنا بقي الجزء الثاني · فاتبعني لتتمه · قال هذا ثم سار امامي حتى وصلنا الى الدهليز المؤدي من منزل الملك الى غرفة ولي العهد فوقف امام خزانة كانت في الجدار هناك

فقال رفيق كامين وما الغرض من انشاء هذه الخزانة في الجدار ما دام الذي يمرُّ بها يستطيع اكتشاف مكانها

فقال كامين بنزق ومن قال لك انه يستطيع اكتشاف مكانها · فانني لما وقفت

هنالك قال الملك ان في هذا الجدار خزانة يجب وضع القفل فيها فهل تستطيع يامعلم كامين ان تكتشف مكانها من غير ان ادلك عليه · فدنوت من الجدار واخذت الحصه وابحث فيه عبثاً لان الخزانة منقورة في الجدار نقرًا غريباً فكانها قسم من الجدار لا يظهر لها فيه اثر · و بعد برهة دنا الملك من مكانها وحرك يده حركة فانفتح بابها وظهر مكانها

فقال الرجل مظهرًا الاستغراب حقاً ان امر هذه الخزانة عجيب غريب · ولكن ما يضعون فيها

فقال كامين صبرًا لا كمل الحديث · فلما انفتحت الخزانة قال الملك خذ الآن قفلك يا كامين وركبه فيها · فتناولت القفل و ركبته في مكانه في دقيقتين · ولما فرغت منه امر الملك فجيء با كياس من الذهب فقال لي اجلس الآن يامعلم كامين وساعدني في عدّ هذه الليرات فجلست واخذت اعدّ معه فعددت مليون ليرة مزدوجة وعدّ الملك مليوناً مثلها ولما فرغنا من العدّ بقي خمس وعشرون ليرة زائدة فوضعها الملك وقال خذ هذا نصيبك يامعلم كامين · فبالله هل سمعت في حياتك بان رجلاً يعدّ مليون ليرة و يشتغل اربع ساعات ولا يقبض سوى ٢٥ ليرة منها

فقال رفيقه لا ريب في ان ذلك غبن ظاهر وشح عظيم ولكن ماذا صنعت بعد ذلك

فقال كامين· بعد ذلك اخذنا اكياس الذهب ووضعناها في الخزانة واقفلنا الباب فكانه لا ذهب في الخزانة ولا خزانة في الجدار · وما كدنا نفرغ من هذا العمل حتى فُتح باب على الدهليز الذي كنا فيه وظهرت في الباب الملكة وفي يدها طبق عليه كاس خمر وقطعة حلوى · فدنت مني وقالت· اظنك يامعلم كامين قد ظمأْتَ فهل تقبل هذه الكاس فاجبتها لماذا اتعبتِ نفسك ياجلالة الملكة فقالت بل اشرب وارو ِظمأك · فتناولت الكاس وشربتها ثم اخذت قطعة الحلوى واكلتها · فبالله عليك هل يُقدم لمثلي اذا ظمىء وجاع كأس خمر وقطعة حلوى

فقال الرفيق · وبعد ذلك

فقال كامين · و بعد شربي الكاس خرجت من التويلري وما خطوت خطوتين حتى ندمت على شربي تلك الكاس اللعينة· فانه عراني بعدها ظمأ شديد لم يصبني مثله قبل ذلك· وقد كان امامي الحانات والنهر فكدت اختار النهر واذهب اليه فاضع فمي في فيه ولا ارفعه حتى اروى · ولكني عدت فاخترت الحانات فكنت ادخل اليها واشرب فيها ارواء لظمأي غير انني كنت كلما شربت اشتد عليّ الظمأ· فعرفت حينئذٍ انهم سمموني · وان الكاس التي

سقتني الملكة اياها كانت ممزوجة بالسم · ولا غرابة في ذلك فانهم استخدموني لصنع قفل لخزانتهم السرية التي خبئوا بها كنوزهم ولما اتممت ذلك راموا قتلي لكي لا يبقى في الوجود احد عارفاً بمكان الخزانة · ولكني انا سانتقم منهم انتقاماً شديداً فان الناس اذا طلبوني للشهادة عليهم شهدت بانهم راموا تسميمي (١)

فقال رفيقه · وانا اشهد ايضاً بانني وجدتك مسمماً وانقذتك بانني سقيتك ترياقاً مقاوماً لفعل السم

وكان كامين قد عادت اليه قوته فنهض قائماً وشكر لرفيقه عنايته به فردَّ له رفيقه الشكر · ثم سار كامين في طريقه قاصداً منزله فتناول رفيقه دفتراً صغيراً في جيبه وكتب عليه الاسطر التالية

— خزانة حديدية سرية · في جدار الدهليز المؤدي من منزل الملك الى غرفة ولي العهد

— البحث عن حقيقة امر الفتى الذي اتخذه الملك خادماً للحدادة فانه غير بعيد ان يكون هو الكونت لويس ابن المركيز دي. بوليه الذي قدم من متز منذ احد عشر يوماً

ولا ريب في ان القراء قد عرفوا ان هذا الرجل الذي لحق كامين واستكشفه اسراره انما هو الكونت كاليوسترو العجيب

الفصل الخامس

﴿ جواب ذو معنيين ﴾

وفي مساء ٢٤ دسمبر من ذلك العام اي في ليلة عيد الميلاد اعدَّ الملك والملكة حفلة استقبال في نادي التويلري · وكان البارون ازيدور دي شارني قد عاد في صبيحة ذلك اليوم من تورين حيث كان الامراء الفرنسويون مقيمين بعد مهاجرتهم فرنسا فراراً من الثورة · وقد عاد البارون من هناك يحمل الى الملك والملكة طلب جميع المهاجرين ان

---

(١) وفي الحقيقة ان هذا الرجل شهد على الملكة لدى مجلس الكونفانسيون يوم محاكمة الملك والملكة انها رامت تسميمه وقبل المجلس شهادته

يرحلا من فرنسا ليلاقياهم الى تورين

ولما انتظم عقد الاجتماع في النادي قبل قدوم الملك والملكة اخذ الحاضرون يسالون البارون دي شارني عن المهاجرين لان كل واحد من اكابر انصار الملكية في فرنسا كان له بين اولئك المهاجرين اهل او اصدقاء . ثم دار الحديث على رجال الثورة فاخذ سولو يحدث الحاضرين عنهم وجعل حديثه مقصوراً في تلك الساعة على الدكتور كليوتين الذي جرّب في ذلك اليوم آلته « الكليوتين » للمرة الاولى . ويعلم القراء ان الكليوتين انما هي آلة للاعدام يوضع تحتها عنق الجاني فتسقط عليها آلة قاطعة تفري عنقه بلمحة واحدة فلا يشعر الجاني بعذاب ولا الم وانما يشعر على قول الدكتور كليوتين ببرد خفيف في عنقه ثم لا يعود يشعر بشيء

وبعد تجربة الدكتور كليوتين هذه الآلة في ذلك اليوم ذهب الى قاعة المجمع الوطني وارتقى منبر الخطابة واخذ يُظهر فضل هذه الآلة الجديدة على آلات الاعدام السابقة كالشنق وضرب العنق بالسيف وتقطيع الاعضاء والاعدام بآلة كالدولاب يدور فيقطع الجسم تقطيعاً . وقد اطنب في وصف آلته اطناباً جعل اعضاء المجلس يميلون اليها فكادوا يقررون تعيينها للاعدام رسمياً عوضاً عن آلات الاعدام التي كانت في تلك الايام

وكان سولو يحدث الحضور عن هذه الآله وينشدهم قصيدة هزلية نظمها فيها فكان الحضور يقهقهون كثيرًا لابيات تلك القصيدة

وبينما هم يقهقهون وصل الملك والملكة الى مقربة من النادي . ولو كان الملك فارغ البال لسأل في الحال عن سبب القهقهة ليشارك الضاحكين في الضحك. ولكنه كان حزين الخاطر مشغول البال فترك هذا السؤال الى وقت يكون فيه مسرورًا راضياً

ولما اعلن الخادم قدوم الملك والملكة سكت المقهقهون والمتكلمون وظهر الاحترام الشديد عليهم جميعاً لان رجال الملكية كانوا في تلك السنة يحترمون الملك بقدر ما كان رجال الثورة يعرضون عنه . نعم ان الملكية قد تالمت في سنة ١٧٨٩ مما اظهره كثيرون من انصارها من نكران الجميل والتخلي عنها ولكنها كانت في سنة ١٧٩٣ راضية كل الرضى عن انصارها لان هولاء الانصار ازدادوا اخلاصاً لها حين نزول الخطر الحقيقي بها

ولذلك فان الملك والملكة ما دخلا الى نادي التويلري حيث كان كثيرون من انصار الملكية مجتمعين حتى خف الحاضرون الى ملاقاتهما باحترام عظيم فاحتاط السيدات بالملكة والرجال بالملك

وكان في جملة الرجال « مونسيو » شقيق الملك · وكان مونسيو قد حادث البارون دي شارني وفهم منه ما كان يروم فهمه · فلما دخل الملك الى القاعة انفرد مونسيو وخطا نحوه وقال له : الا تستطيع يا اخي ان نجلس انت والملكة وانا و بعض الاخصاء بحجة اللعب ونتحادث حديثاً سرياً

فاجاب الملك اصنع ما تريد يا اخي ودبر ذلك كما تشاء

فدنا حينئذ مونسيو من الملكة وكان البارون دي شارني يقول لها في هذا الحين العبارة التالية : ان المركيز ففراس عهد اليَّ ان ابلغ جلالتك امراً ذا شان · فلما دنا مونسيو من الملكة كان البارون دي شارني قد اتم كلامه فقال لها مونسيو · ان الملك يا اختي العزيزة يروم ان نلعب احدى الالعاب ونحن اربعة فمن ترومين ان يكون رابعنا

فاجابت الملكة حينئذ وقد فهمت المقصود من اللعبة · تعالَ يا مسيو دي شارني وكن رابعنا ·

ثم جلس الاربعة على مائدة هنالك · وكانت مدام اليزابت حاضرة فجلست على مسند وراء الملك · واخذ الاربعة يلعبون في الظاهر و يتحادثون في الواقع

فافتتحت الملكة الحديث بسؤالها دي شارني · كيف من خلفتهم في تورين ايها البارون · فاجاب البارون تركتهم في خير وسلامة · فنظرت الملكة الى مونسيو ثم نظرت الى الملك وقالت · اما سمعت جلالتك ان البارون دي شارني عائد من تورين

فلم يجاوبها الملك ولكنه تحرك حركة ظهر منها فراغ صبره من كلام الملكة

فتداخلت حينئذ مدام اليزابت التي كانت جالسة وراءه وقالت للملك بلطفها المعهود ارجو منك يا اخي ان تصغي بانتباه الى هذا الموضوع

فنظر اليها الملك نظرة عتاب وقال لها : وانتِ ايضاً يا اختي · فقالت مدام اليزابت نعم انا ايضاً ارغب في ذلك · بل ارغب فيه اكثر من الجميع لانني اشد الناس حباً لك وانا خائفة عليك ·

فاجترأ حينئذ البارون دي شارني وقال · وحين وصولي من تورين مررت في شارع رويال وصرفت ساعة في المنزل نمرو ٢١

فقال الملك ولمن هذا المنزل الذي ذكرته

فاجاب ايزيدور · ان في هذا المنزل يامولاي رجلاً نبيلاً مستعداً امثلنا للموت في سبيل جلالتكم ولكنه اشد نشاطاً منا لانه اعد مشروعاً نافعاً

فرفع هنا الملك راسه وقال وما هذا المشروع ايها البارون

فاجاب البارون دي شارني اذا كنت قد اغضبت الملك بهذا الكلام فاني اسكت في الحال. فقالت الملكة بنزق . بل تكلم تكلم . فانه من الواجب علينا ان نقف على مشروعات الاصدقاء الذين يرومون خدمتنا كما اننا نقف في كل يوم على مشروعات الاعداء الذين يعدونها ضدنا . وما هو اسم هذا النبيل ايها البارون

فاجاب ايزيدور . اسمه يا مولاتي المركيز دي ففراس فقالت الملكة وقد تجاهلت كل شيء . نعم نعم قد سمعت بهذا الاسم وعرفت صاحبه . ولكن ما هو الغرض من مشروعه والى اي حد انتهى فيه .

فاجاب ايزيدور لقد اتمه يامولاتي وهو الان في انتظار امر الملك . فاذا امره استطاع الوصول الى بيرونه في هذا المساء

فلم ينطق الملك بكلمة حين سماعه هذا الكلام . اما مونسيو اخوه فانه اظهر انه غير سامع كلمة من هذا الحديث

واما الملكة فانها التفتت الى زوجها الملك وقالت له . اما سمعت ماذا قال البارون. فعبس الملك واجاب بلى لقد سمعته

فقالت الملكة لمونسيو . وانت يااخي هل سمعت ما قاله البارون

فاجاب مونسيو . لست اشد صمماً من الملك

فقالت الملكة وما هو رايك الا ترى ان هذا الكلام بمثابة اقتراح يُقترح على الملك.

فاجاب مونسيو لا شك في ذلك

فالتفتت الملكة حينئذ الى البارون دي شارني وقالت له . اعد علينا مقالك اللطيف ايها البارون

فقال دي شارني . مولاتي اقول ان كل شيء مُعد حاضر وان الملك اذا لفظ كلمة واحدة استطاع بواسطة الطرق والتدابير التي اتخذها المركيز دي ففراس ان يصل الى بيرونه في يوم واحد ويكون في امن وسلامة فيها

فنظر مونسيو حينئذ الى الملك وقال . فماذا تقول يا اخي بهذا المشروع الا تراه موافقاً

فالتفت الملك بنزق نحو مونسيو ونظر في وجهه ملياً ثم قال له : واذا سافرتُ هل تسافر معي انت

فامتقع وجه مونسيو وظهر الاضطراب في وجهه فاجاب . انا ؟

فقال الملك نعم انت يا اخي . فانك تخشى على السفر من باريز فهل تسافر معي اذا سافرت

فقال مونسيو ولكني انا لم اتاهب للسفر ولم ادبر حوائجي لانهم لم يبلغوني

فقال الملك كيف لم يبلغوك مع انك انت الذي دبرت المال للمسيو ففراس . وكيف لم تتاهب للسفر مع انك واقف على جميع تفاصيل هذه المؤامرة

فاصفر وجه مونسيو واجاب . المؤامرة ؟

فقال الملك نعم انها مؤامرة حقيقية واذا اكتشف امرها غداً والقي القبض على ففراس فان محكمة الشاتليه تحكم عليه بالاعدام ولا نستطيع حينئذٍ انقاذه كما انقذنا المسيو دي بزنفال

فقال مونسيو واذا كان الملك قد انقذ المسيو دي بزنفال فلماذا لا ينقذ المسيو دي ففراس

فقال الملك لان ما قدرت ان اصنعه للاول لم اعد قادراً على صنعه للثاني . ومع ذلك فالمسيو دي بزنفال هو رجل الملك فالملك انقذه اما المسيو دي ففراس فهو رجلك فيجب عليك ان تنقذه انت

ولما قال الملك هذا القول نهض منصرفاً . فامسكت به الملكة من طرف ثوبه وقالت ولكن على جلالتكم ان تجاوبوا دي ففراس اما نعم واما لا

فاجاب الملك وهو يشد ثوبه ليستخلصه من يد الملكة . ان الملك لا ياذن لاحد بان يختطفه

ثم ذهب الملك في سبيله

فالتفت مونسيو شقيق الملك الى الملكة والبارون دي شارني وقال . ان كلام الملك يدل على ان المركيز دي ففراس يجوز له ان يختطف الملك من غير اذنه وذلك على شرط ان ينجح اما اذا فشل فليس امامه الا العقاب

فقالت الملكة للبارون دي شارني . عد ايها البارون الى المسيو دي ففراس وانقل له كلمات الملك نفسها . وهي « ان الملك لا ياذن لاحد بان يختطفه » وهو يفهم معناها . فاذهب مسرعاً

فنهض البارون وخرج من القصر فركب مركبة قاصداً منزل دي ففراس

الفصل السادس

﴿ طبيب الجسد وطبيب النفس ﴾

ولما نهض الملك عن المائدة سار نحو الشبان الذين كانوا يمزحون و يقهقهون قبل دخوله، فنهضوا جميعاً احتراماً للملك . فقال لهم الملك باسماً ما لكم سكتم بعد تلك القهقهة هل انني حزين الى هذا الحد حتى انني احمل الحزن معي الى كل مكان ادخله. لقد صدق القائل « ما اتعس الملوك الذين لا تضحك رعيتهم امامهم »

فبهت الشبان لهذا الكلام واجاب البرنس لامبرت . ولكن واجب الاحترام يا ذا الجلال ....

فقطع الملك عليه الكلام قائلاً لا تقل الاحترام ايها البرنس فانك لما كنت تجيء الى القصر في شبابك في اثناء الفرصة المدرسية كنت لا تفتأ من الضحك والقهقهة امامي . وقد قلت الساعة « ما اتعس الملوك الذين لا تضحك رعيتهم امامهم » والآن اقول « ما اسعد الملوك الذين تضحك رعيتهم امامهم »

فقال المسيو دي كاستري ولكن الموضوع الذي كنا نضحك منه لا يليق بان نتكلم عنه في حضور جلالتكم ولذلك سكتنا

فقال الملك وما هو هذا الموضوع الذي اضحككم الى هذا الحد

فقال سيلو كنا نتكلم عن المجمع الوطني

فقال الملك بجد . اذاً لقد احسنتم بسكوتكم وترك الضحك لاني لا آذن لاحد بان يضحك من المجمع الوطني امامي

فقال احد الحاضرين ما كنا نضحك من المجمع الوطني ولكن مما جرى فيه في هذا الصباح

فقال الملك واي امر تعنون

فقال سيلو اما سمع جلالة الملك بما قاله اليوم الدكتور كايوتين عن آلته في المجمع

فقال الملك اذن كنتم تضحكون من كايوتين وآلته اما انا فلا اضحك منه لان اختراعه مفيد للانسانية اذ يخفف عذاب المجرمين حين اعدامهم

ثم امسك الملك عن الكلام هنيهة وبعد ذلك سأل سيلو . وهل نجحت تجربة الكليوتين

فاجاب سيلو لقد نجحت في الاثنين الاولين واما الثالث فقد بقيت عنقه عالقة برمته من احد الجوانب فاضطروا الى قطعها بالسكين

فقال احد الحاضرين وهل اعدموا اليوم ثلاثة من الناس . فاجاب سيلو انهم ثلاثة مرضى ماتوا في المستشفى فجربوا اليوم الآلة فيهم

فسأل الملك وما السبب في ان الآلة لم تقطع العنق الثالثة هل فيكم رجل شاهد الآلة ويستطيع وصفها لي

فاجاب صوت من الحلقة التي كانت حول الملك نعم ياذا الجلال

فالتفت الملك فابصر الدكتور جيلبار . فقال له هذا انت ايها الدكتور وهل كنت منذ مدة طويلة ههنا . فابتسم الدكتور وقال منذ هنيهة يامولاي : قال وهل شهدت الآلة قال نعم قال فارسمها لي على هذه الورقة . واشار الى مائدة هناك

فقصد الدكتور جيلبار المائدة واخذ يرسم الآلة على ورقة كانت عليها فاحاط الجميع به وبالملك . ولما فرغ من الرسم قال الملك لقد فهمت الآن تركيب هذه الآلة ولا عيب فيها سوى ان الآلة القاتلة مصنوعة على شكل هلال فلو صنعوها على شكل مثلث لوفت بالغرض بسهولة غريبة

ولكن الملك ما اتم هذا الكلام حتى صرخت من ورائه امرأة صراخاً مخيفاً . فالتفت الجميع فابصروا الملكة وراء الملك يغمى عليها

فاسرع الجميع اليها

وكان السبب في ذلك ان الملكة لما شاهدت الحلقة حول الملك انضمت اليها لترى الامر الذي كانوا يهتمون به فيها . ولكنها ما دنت من الملك ووقع نظرها على رسم الآلة التي كانت في يده حتى صرخت ذلك الصراخ واغمي عليها . وذلك لان الملكة كانت قد رأت منذ صغرها في تريانون صورة هذه الآلة في زجاجة ماء صغيرة والذي اراها اياها هو كاليوسترو الرجل العجيب وقد تنبأ لها يومئذٍ بانها ستقتل بها

فبناء على ذلك تكدر صفو تلك الليلة وحملت الملكة الى غرفة هناك فاقام الدكتور جيلبار بجانبها لمعالجتها

وبعد برهة عادت الملكة الى نفسها فامرت خادماً هناك ان يذهب ويبلغ الملك خبر

سلامتها . ثم التفتت فابصرت الدكتور جيلبار بجانبها فقالت له باسمة . هل تعتقد بالنبوءات ايها الدكتور

فانحنى الدكتور واجاب ان العلم ينكر كل شيء من فوق الطبيعة ياسيدتي ومع ذلك فقد تحدث حوادث عجيبة

فقالت الملكة مثل ماذا

فقال جيلبار ان بعض العقول الكبيرة تعطى احياناً قوة معرفة المستقبل قياساً على الماضي وحينئذٍ ...

فقالت الملكة حينئذ ماذا

فقال حينئذٍ يتنبأون بامور غريبة . فاني اعرف رجلاً ....

فقطعت الملكة حديثه وقالت لعلك تتكلم عن معلمك كاليوسترو

فاجاب جيلبار . مولاتي ليس لي معلم غير واحد مفرد وهو الطبيعة . اما كاليوسترو فليس هو بمعلمي ولكنه المحسن الي . فانني جرحتُ في شبابي جرحاً قطعت الامل من شفائه فجاءني بمرهم غريب شفاني به منه في مدة قريبة

فقالت الملكة وهل تنبأ هذا الرجل نبوءات وتمت نبوءاته

فقال جيلبار لقد تمت بدقة غريبة

فقالت فاذا تنبأ لك هذا الرجل انك ستموت موتاً شنيعاً هل تصدقه

فقال جيلبار لا اصدقه ولكني اعمل على اجتناب ذلك الموت

فالتفتت الملكة حينئذ الى جيلبار وقالت بحدة لا سبيل الى اجتناب ذلك الموت ايها الدكتور فانني مائتة لا محالة . ان هذه الثورة ستبتلعني وتبتلع العرش معي وهذا الاسد سيفترسني مع زوجي واولادي

فاجاب جيلبار اذا شئتِ يامولاتي صار هذا الاسد وديعاً كالحمل معك . فلاطفيه واحسني معاملته تملكي قياده و يصبح طوع امرك

فقالت الملكة كلا ايها الدكتور لقد انقطع كل شيء بيني و بين هذا الشعب . فانه يبغضني وانا احتقره

فقال جيلبار ذلك لانه لا يعرفك ولا تعرفينه . فانك تنظرين اليه من الشاطئ كما ينظر الى البحر من هو واقف على شاطئه فيرى امواجه تروح وتجيء بلا دافع ولا سبب وتتكسر تحت قدميه . ولكن اذا ذهب هذا الواقف الى عرض البحر حيث العمق العظيم .

اذا نظر اليه من فضاء الكون حيث ترفرف روح الله عليه ابصر على سطحه سريرًا صغيرًا كسرير موسى في النيل وهذا السرير هو « سرير فرنسا الجديدة » قادم الى الشاطىء . فليحرسك الله ايها السرير الصغير

ثم رفع جيلبار يديه الى السماء مع انه من الذين لم يعتادوا التحمس في كلامهم

فقالت الملكة وهي تنظر اليه والى اين مسير هذا السرير ياد كتور

فقال جيلبار ان هذا السرير سائر الى ارض مجهولة . وسيستقر في مكان جديد يسمونه « الوطن » فهناك يجد المربية القوية التي تجعل الشعوب اقوياء وهي « الحرية »

فضحكت الملكة وقالت كنت احسب ان فساد الاحكام قد قتل هذه الكلمات الفارغة فاذا بها لا تزال حية

فاجاب جيلبار . كلا ياسيدتي ليست هذه الكلمات فارغة ولكنها كلمات عظيمة . انظري الى فرنسا تجديها بين العثرات الكثيرة التي امامها والاخطار التي لا تحصى تمشي الى غرض منصوب امامها . وهو الوحدة . لقد كانت من قبل بلادًا متقطعة في كل مقاطعة منها تنافس وتفاضل وجمارك واوزان مختلفة ولهجات متباينة ومطامع مخصوصة ومطامع قديمة . ففي ذات يوم عصفت فيها ريح شديدة زعزعت العرش وجمعت تلك المقاطعات المتفرقة على كلمة واحدة . لقد كان سكانها من قبل تولوزيين ونورمانديين و بريتانيين و بورغونيين اما اليوم فقد ذهبت هذه الالقاب وصاروا كلهم « فرنسويين » . ولا شيء تحت قبة السماء قادر على منعهم من هذا الاتحاد

فصاحت الملكة وهل يروقك ان ترى ثلاثين مليون نفس متمردة ومتحدة على ملكها وملكتها هذا الاتحاد

فاجاب جيلبار ليس الشعب بالمتمرد على الملك والملكة ايتها السيدة ولكن الملك والملكة هما المتمردان عليه . فانه بينما ينادي بالاخاء والاخلاص والحرية والمساواة يسمعهما يذكران الحقوق القديمة والامتيازات الملكية وما اشبهها . لقد سقط سقط يامولاتي ذلك العالم القديم وقام الآن عالم جديد . لقد ولد طفل جديد وهو « فرنسا الحديثة » فسرت ولادته جميع الامم المهضومة . اسمعي ايطاليا واسبانيا وبولونيا وايرلنده — كلها تهتز طربًا لولادة هذا الطفل كما اهتزت شعوب الارض طربًا لولادة المسيح في مزوده بيت لحم . ذلك لان فرنسا هي مسيح الامم الحديثة . وكل واحدة من الامم المستعبدة المهضومة تناديها الآن : دومي يافرنسا لاننا نكون احرارًا فيكِ . اي انهن يؤملن الحرية منها . فخذي يامولاتي هذا

الطفل الجديد بين ذراعيك واجعلي نفسك اماً له

فصرفت الملكة نظرها عن جيلبار . وقالت . ولكنك نسيت ايها الدكتور اني ام اولاد لا استطيع نبذ ولدي لاحتضان ولد غريب

فقال جيلبار حينئذٍ بشيء من الحدة . فانا اشير عليك اذاً ايتها السيدة ان تضعي رداءك الملكي على ولديك وتخرجي بهما من فرنسا في الحال اذا كانت هذه الافكار افكارك

فقالت الملكة وهل تشير عليَّ اذاً بالرحيل من فرنسا

فقال الدكتور نعم نعم صرتُ اشير به عليك الآن بعد ما عرفته من بغضك للثورة فارحلي وانا اساعدك على الرحيل ياسيدتي

فقالت الملكة لا اخفي عنك اذاً اننا عزمنا على الرحيل على يد رجل اظنك سمعت باسمه

فقال جيلبار اظن جلالتك تريدين المركيز دي ففراس

فحملقت الملكة في وجه جيلبار وسألته . من اين عرفت ذلك

فاجاب جيلبار وهو يهز راسه مولاتي ان الرجل الذي تعرفينه قد تنبأ لهذا الرجل بموت قريب

فقالت مستغربة وبماذا تنبأ له . قال تنبا له بانه سيموت شنقاً في ساحة الاعتصاب

فاجابت الملكة ولكن نبوءة هذا الرجل ستكذب هذه المرة لا محالة فان رسولي الآن عنده ولا تغرب علينا شمس الغد الا ونحن خارج فرنسا

على ان الملكة لم تتم كلامها حتى دخل خادم واعلن وصول البارون دي شارني

فصاحت الملكة ادخله ادخله فهو رسولي الى دي ففراس والدكتور صار عارفاً بمشروعنا

فدخل البارون دي شارني بعد برهة ولكنه كان اصفر اللون والقلق بادٍ في عينيه ووجهه

فبادرته الملكة بالسؤال ما وراءك ايها البارون وماذا قال لك المركيز دي ففراس

فاجاب البارون بعد ان انحنى باحترام ان المركيز دي ففراس قد القي القبض عليه منذ ساعة ياسيدتي

فاجفلت الملكة لهذا الخبر ايما اجفال ونظرت الى الدكتور جيلبار نظراً قادحاً شرر الغيظ والدهشة

اما الدكتور فانه تاثر لهذه المصيبة الجديدة التي دهمت الملكة فدنا منها وحاول تخفيف حزنها بخضوعه واخلاصه واظهار استعداده لخدمتها

وكان هذا الخبر قد سرى في القصر الملكي بسرعة البرق · فلما درى به مونسيو شقيق الملك طلب مركبته بالحال · وفيما هو نازل في السلم صادف الملك اخاه في وجهه فساله الملك · لو كنت مكاني يا اخي ماذا كنتَ تعمل الآن · فاجاب مونسيو وكان مشهوراً بالموار بة لو كنت مكانك يا اخي لتخليت عن فقراس واقسمت للمجمع الوطني انني محافظ على الدستور الذي سنه للامة

فقال الملك ولكن هذا الدستور لم يتم بعد

فاجاب مونسيو وهو ينظر الى الملك نظراً ذا معنى مقصود : هذا مما يسهل القَسم

فقال الملك وقد بهت قليلاً · لا باس ومع ذلك فانني ساكتب الى المسيو دي بوليه اننا لا نزال نفكر في مشروعه ولكن نؤجله الى وقت آخر

الفصل السابع

﴿ الملك واخوه ﴾

(يُظهران غير ما يُبطنان)

وفي صباح اليوم التالي نُشرت في باريز مائة الف نسخة من نشرة فحواها ان المركيز دي فقراس كان يعدُّ مؤامرة لقتل لافاييت و بالي وقطع الزاد والميرة عن باريز وفي مقدمة هذه المؤامرة « مونسيو » شقيق الملك

فقام اهل باريز وقعدوا لهذا الخبر · وفي مساء ذلك اليوم اجتمع اعضاء المجلس البلدي في قاعة المجلس برئاسة بالي · و بينما هم يتباحثون في تلك المسالة واذا بالحارس قد دخل وقال : ان مونسيو يطلب الدخول على المجلس

فالتفت اليه الرئيس بالي وقال · اي مونسيو اذ لم يخطر له ببال ان « مونسيو » يحضر بنفسه

فاجاب الحارس « مونسيو » شقيق الملك

فبهت جميع الاعضاء وامروا الحارس بادخاله · فدخل مونسيو وهو اصفر اللون فسلم ثم

التي على الاعضاء خطابة لتبرئة نفسه من التهمة التي اتهموه بها وقال انه من نصراء الحرية وانه لا يعرف المسيو دي ففراس ٠ فاجابه الرئيس بخطبة لطيفة اظهر فيها سروره من حضور شقيق الملك الى المجلس واعتقاده ببراءته ٠ وقد قال بالبي ذلك واكثر الاعضاء والحاضرون يعتقدون بعكسه ٠ ومع ذلك فقد كان نجاح مونسيو عظيماً فعاد وقد القى مؤامرة ففراس عن كاهله

فلما رأى الملك نجاح اخيه لدى المجلس البلدي رام ان يصنع صنعه لدى المجمع الوطني فذهب على حين فجأة لزيارة المجمع

فدهش اعضاء المجمع لما علموا بقدوم الملك وتنحى الرئيس لجلالته عن كرسي الرئاسة ٠ ولما دخل الملك الى القاعة دوت جدرانها من تصفيق المصفقين وهتافهم ٠ فوقف الملك فيهم والقى خطبة طويلة عريضة ٠ وقد قال فيها انه قدم الى المجلس ليهنئه بالاعمال الدستورية التي عملها ويؤكد له مساعدته ووداده ٠ ثم اثنى على دستور سنة ١٧٩٠ وقال انه يحبه وهو لم يكمل بعد فكيف اذا كمل

فلما قال الملك ذلك دوت القاعة مرة ثانية بالتصفيق العظيم وبكى اعضاء المجلس سروراً وابتهاجاً ٠ وقد بكوا جميعاً حتى ميرابو وبرناف ولامث ودپيور وباريرفكان من دموعهم طوفان عظيم ٠٠٠ غير ان بيتون وكاميل دي مولين ومارات لم يصفقوا ولم يبكوا

ثم خرج الملك من القاعة في وسط هياج عظيم فكره اعضاء المجلس ان يفارقوه فرافقوه الى التويلري وهم يتحمسون ويهتفون له ٠ فلقيتهم الملكة في التويلري ٠ ولكن الملكة لم تكن متحمسة لتحمسهم ٠ فتناولت ولدها بين يديها وقدمته لهم فوقف الاعضاء هناك واقسموا كلهم يمين الامانة للامة والقانون والملك والدستور

وبعد هذا اليوم ركدت ريح الباريزيين كانهم اطمأنوا الى وعد الملك فكان سرور عام في كل المدينة وقد زينت بعض الاحياء وصار الناس يحلفون تلك اليمين في الشوارع حتى الاولاد الصغار صارت تحلفها ٠ فامر المجمع الوطني ان تُقام في كنيسة نوتردام صلاة شكر لله لتجديد تلك اليمين فاقيمت صلاة حضرها جميع الاعضاء ولكن الملك لم يحضرها ٠ فقالت الملكة للملك في ذلك اليوم على سبيل التهكم ٠ لماذا لم تحضر الصلاة لتحلف اليمين كما حلف سواك ٠ فاجاب الملك هذا الجواب ٠ ذلك لانني ساكذب على الناس ولا اريد الكذب على الله

فدهشت الملكة من هذا الجواب لانها كانت تعتقد كباقي الناس ان الملك مخلص

في يمينه · على ان الملك لو كان مخلصاً فيها لانقذ عرشه وعائلته

الفصل الثامن

﴿ كيف يكون النبل الصحيح ﴾

وكانت زيارة الملك للمجمع الوطني في ٤ فبراير من عام ١٧٩٠ وفي ١٨ منه كان ميعاد محاكمة المركيز دي ففراس لدى محكمة الشاتله بتهمة المؤامرة على المملكة

ففي ليلة هذا اليوم اي في الليلة التي بين ١٧ و١٨ دخل الى سجن الشاتله رجل يحمل امرًا من ادارة البوليس بالاذن له ان يقابل المركيز دي ففراس · ولا نعلم اذا كان هذا الامر صحيحاً او مزورًا ولكن مدير السجن وجده على ما يظهر صحيحاً ولذلك اذن له بالدخول

وكانت هذه الغرفة في مغارة تحت الارض عمقها ٢٠ قدماً · فلما وصل اليها الرجل المجهول التفت فابصر هنالك فتى واقفاً فساله هل تُسمى انتَ الفتى لويس فقال نعم فقال وهل انت امين مفاتيح هذا السجن فقال نعم · فقال الرجل المجهول فانت اذًا اخ من ماسونيي اللوج الاميركي فانحنى الفتى وقال نعم ياسيدي · فقال وقد عينوك ههنا منذ ثمانية ايام لغرض مجهول عندك · قال نعم · قال هل انت مستعد للقيام بذلك الامر · فاجاب نعم · قال فممن تصدر لك الاوامر قال من « المسيح » قال وما علامته عندك · قال ثلاثة نجوم مذهبة على ثوبه الباطني

ففك حينئذ الرجل المجهول رداءه الخارجي وقال له انظر فنظر الفتى ثلاثة نجوم مذهبة على ثوبه الداخلي فانحنى باحترام شديد وقال مربما تريد يامعلم · فقال الرجل المجهول افتح لي سجن دي ففراس وانتظر اوامري على بابه

فتقدم الفتى باحترام وخضوع وفتح باب سجن دى ففراس فدخل اليه الرجل المجهول على ان هذا الرجل وان لقبناه مجهولاً فانه ولا شك معروف عند القراء لكثرة ورود اسمه في هذه الرواية

ولما دخل الرجل الى سجن ففراس كان ففراس مستغرقاً في نوم هادىء ولكن وقع اشعة النور على عينيه نبهه من نومه ففتح عينيه وقال من هذا

فاجاب الرجل صديق من اصدقائك

فحملق ففراس ليرى هذا الصديق الذي جاء يطلبه وهو تحت سطح الارض بعشرين

قدماً · ثم قال وقد عرفه : جناب البارون زانون

فاجاب الرجل نعم ايها المركيز · فقال دي ففراس ضاحكاً لا اظنك طلبتني لتعقد معي قرضاً فقال كلا ولكنني قصدتك لانقذك من ضيقك · فضحك دي ففراس وقال له تفضل واجلس

فجلس الرجل المجهول ثم اردف بقوله · نعم جئت اقترح عليك شيئاً فيه نجاتك · فضحك دي ففراس مرة ثانية · فقال له الرجل لا تضحك ياسيدي فان اعتمادك على الملك او على اخيه مونسيو عبث في عبث

فحدق ففراس بالرجل وقال له وما معنى ذلك · فقال الرجل معناه انك اذا كنت تعتمد في نجاتك من هذا الضيق الذي وقعت فيه على الملك وعلى اخيه فانا اخبرك ان اخا الملك ذهب الى المجلس البلدي وتبرأ منك وقال انه لا يعرفك الا قليلاً والملك اقتدى به فذهب الى المجمع الوطني وحلف يمين الامانة للدستور فكأنه تبرأ منك ايضاً · وفي صباح الغد ستجتمع محكمة الشاتله لمحاكمتك وستحكم عليك بالاعدام لانك خنت المملكة وتآمرت على قتل رجالها · ومتى حكمت المحكمة عليك تنفذ الحكم فيك بلا ابطاء ولا تاجيل · افهمت انه لم يبق امامك منفذ غير الذي جئت اقترحه عليك

قال وما غرضك من اقتراحك قال غرضي اني عرفت انك من اكارم النبلاء الذين يندر بيننا وجودهم فاردت حفظ حياتك لا للملكية فقط بل للانسانية · وفضلاً عن ذلك فاني على ما تذكر قد اقرضتك مليوني فرنك ولا ريب انك استخدمت هذا المال في مشروعك ولولاه لما اقدمت عليه فكأني كنت شريكاً لك في الذنب ولذلك ترتب عليَّ مساعدتك

فقال ففراس وما هي خطتك الآن · فقال الرجل خطتي انك اذا رضيت بالفرار اصبحت في ساعة واحده خارج هذا السجن وبعد ٢٤ ساعة تكون خارج فرنسا كلها

فقال ففراس رافضاً شكراً لك ايها البارون

فقال الرجل كاني عرفت بسبب ترددك فانك تخاف ان تصبح عائلتك بعد سفرك في حالة سيئة ولكني قد تداركت هذا الامر واحضرت لك في جيبي مائة الف فرنك لها

فضحك ففراس ومدَّ يده الى الرجل المجهول · وقال اشكرك من صميم قلبي على هذا الفضل والاخلاص ولكني اردُّ اقتراحك ياسيدي

فقال الرجل المجهول مستغرباً ولماذا · قال لانني اذا فررت اتهم الناس البلاط بانه مهد لي سبيل الفرار وبذلك تثبت على الملك تهمة الاشتراك معي في الجريمة المنسوبة اليَّ

فقال الرجل المجهول وهل تموت انت اذًا من اجل ذلك

فقال دي ففراس بكبرياء وعظمة نعم اموت من اجل مبداءي وشرفي . فاني مُلكي ومن واجباتي ان لا القي التهمة على الملكية

فقال الرجل ولكن هل عرفت الموت الذي ستموت به . فقال ففراس بعظمة . تعددت الاسباب والموت واحد

فقال الرجل نعم ولكنك نسيتَ ان المجمع الوطني قرر المساواة بين الاموات كما قرر المساواة بين الاحياء فانه جعل المشنقة عقاباً واحدًا للجميع . افلا تستنكر الشنق ايها المركيز

فبهت المركيز لهذا الكلام لان النبيل الشجاع اذا كان لا يخاف الموت فهو يستنكر الموت شنقاً لما في ذلك من التشهير والعار

ولكن المركيز لم يلبث ان قال: لست افضل من المسيح الذي مات صلباً

فقال الرجل المجهول اذا كان تاثير موتك شنقاً على الملكية سيكون كتاثير موت المسيح صلباً على العالم فمت ولا بأس . ولكنك ستكون كالنافخ في رماد

فقال ففراس ان موتي سيكون مثالاً لجميع انصار الملكية الذين لا ينصرونها الا للانتفاع منها فلا تحاول ايها البارون امرًا مستحيلاً فانني لا استطيع الفرار كما اقترحت

ولما يئس الرجل من ذلك قال لدى ففراس انني مفارقك الآن ولكن فاعلم انك متى رضيت بالفرار والنجاة من الموت فما عليك الا ان تبلغني ذلك مع الفتى لويس الواقف على بابك فانقذك في ساعة واحدة ولو كنتَ تحت المشنقة

ثم خرج كاليوسترو من لدن ففراس وهو يعجب بهذه الشهامة وتلك الامانة . وكان غرضه من انقاذه القاء التهمة على الملكية توسيعاً للخرق بينها وبين الشعب

وفي صباح اليوم الثاني انتظمت محكمة الشاتله لمحاكمة دي ففراس فغصت قاعتها بالناس حتى لم يبقَ فيها موضع قدم فارغاً . وكان عدد القضاة اربعين قاضياً . فجيء اليهم بففراس وهو لابس ملابسه بتانق كثير وصاقل شعره باحكام حتى ان الشعرة تكاد لا تخرج عن اختها . فصاح الحاضرون صياح الغضب والبغض حين دخوله فبقي ففراس كما كان هادئاً رصيناً كانه جبل شامخ لا تزعزعه الرياح . فاجلسه الحارس امام القضاة فساله رئيس المحكمة عن اسمه ولقبه وسنه طبقاً للنظام فاجاب بكل هدوء ولم يرتجف له صوت ولم يبدُ في وجهه تاثر . وبعد هذه الاسئلة دُعي شهود الاتهام فشهدوا كلهم . فاصغى ففراس الى شهاداتهم

بسكينة وهو معول في نفسه على شهود النفي الذين استدعاهم ليشهدوا له

ولذلك ما اشد ما كانت دهشته حينما اعلن الرئيس بعد استماع شهادات الاتهام ان المحكمة اوقفت الجلسة لتدخل الى قاعة المذاكرة . فقال للرئيس ولكن لا يزال لديك شهود النفي يا حضرة الرئيس

فاجاب الرئيس ان المحكمة قررت ان لا تسمع شهود النفي . فقال ففراس مستاءً من هذا القول . كنت احسب انني احاكم في محكمة الشاتله وما كنت ادري انني احاكم في « ديوان التفتيش »

ثم عاد به الحراس الى سجنه وهو يقول . هذا مصير من يتآمر مع الامراء

وبعد مدة دخل عليه بعض الرجال والحراس من قِبل المحكمة لتلاوة صورة الحكم عليه واذا به قد حُكم عليه بالشنق في « ساحة الاعتصاب »

ولما خرجوا دخل رجلان آخران وكان خادم السجن الذي اوصاه كاليوسترو بما اوصاه قد دنا من ففراس قبل دخولهما وقال له هل يامر حضرة المركيز بشيء . فقال لا . فنظر اليه الفتى وقال الا يريد النجاة بنفسه فاجاب المركيز لا لا اريد شيئاً

اما الرجلان اللذان دخلا فانهما هجما على المركيز واخذاه الى غرفة تدعى غرفة التعذيب فنزعا ثيابه عنه والبساه قفطاناً طويلاً من عنقه الى قدميه ثم قصا شعره واوثقا يديه واناماه على مكان هناك معدّ لتعذيب المجرمين و بعد ذلك انهضاه وقالا له ان المحكمة قررت ترك تعذيبه . ولكن يجب عليه ان يبقى ساعة في تلك الغرفة

فنهض المركيز وهو في حالة يرثى لها واخذ يجول في تلك الغرفة ليرى ما فيها من الآثار القديمة . فشاهد فيها كثيرًا من آلات التعذيب والقتل وفي جملتها الآلات التي عُذب بها اليهود في القرن الثالث عشر والآلات التي مُزق بها البروتستانت في القرن السابع عشر

وبينما كان يجول في الغرفة جاءه احد الرجلين وقال له ما غرضك من هذا الجولان وهذه المشاهدة . فاجاب دي ففراس مازحاً وهو على ابواب الموت . اجول فيها لافتقد آلاتها فلعلي اصادف ابليس في طريقي بعد الموت فاطلعه على هذه الوسائل التي لا يعرفها ليعذب الناس بها

وكان الرجل الثاني ينظر الى ففراس الحين بعد الحين نظرات معنوية . فلما تركه رفيقه دنا منه وقال له . الا تزال مصرًا على الموت او تروم النجاة

فتفرس فيه ففراس فعرف من منظره انه رسول الرجل الذي دخل عليه يقترح انقاذه فاجابه كلا لا اريد شيئًا يا صاحبي

ولكنه طلب كاهن كنيسة القديس بواس ليراه قبل موته فدعي هذا الكاهن وخلا به . وليس يعلم احد اذا كان ففراس قد اعترف له وهو على ابواب الابدية بما تمّ من المؤامرة او ابقى نفسه مقفلة فلم يطلعه على شيء من امرها

وبعد مدة جيء بمركبة الجناة فركب ففراس فيها مع الجلاد والرجالين والكاهن . وكانت طرق باريز وشوارعها مزدحمة اشد ازدحام من السجن حتى كنيسة نوتردام فساحة الاعتصاب

اما كنيسة نوتردام فقد كان يجب على دي ففراس ان يدخل اليها ليتوب ويستغفر فدخل اليها مع الكاهن وكانت غاصة بالحاضرين فجثا امام الهيكل ثم القى خطبة وجيزة قال فيها انه بريء وانه يموت دون شكوى ليكون مثالاً لانصار الملكية . وانه يشكر الله الذي اتاح له هذا الموت دون سواه اذ لو كان قضي بهذا الموت على رجل ضعيف يُظهر الجبن والخوار فربما كان موته مضرًا لا نافعًا

فاثر كلامه في جميع الذين كان في نفوسهم ميل للملكية

وبعد الصلاة سارت المركبة في وسط الجماهير المزدحمة الى ساحة الاعتصاب فطلب ففراس ان يؤذن له بالصعود الى المجلس البلدي ليكتب وصيته فسارت مركبته نحو المجلس البلدي

فلما رأى الشعب ذلك صار يزحم بعضه بعضًا وراء المركبة ويقول ان الجاني قد عزم على الاعتراف بجنايته

ذلك ان الجناة الذين يطلبون الدخول الى المجلس البلدي قبل الاعدام يكون غرضهم الاعتراف بامور كتموها . وفي المجلس غرفة خصوصية يسمونها غرفة الاعتراف

فلما دخل دي ففراس الى المجلس املى على احد الكتبة صورة الوصية ثم سالهم ان يحلوا وثاق يديه ليوقع عليها فحلوا وثاقه فتناول القلم واصلح ثلاث غلطات في الكتابة ثم وقع على الوصية

وقد استغرقت كتابة هذه الوصية ست صفحات ولذلك طال المطال على الشعب . وقد اشاع بعض العامة ان المجلس مهد سبيل الفرار للجاني من الباب الثاني فسخط الشعب واي سخط وصار الناس يتحدثون بالهجوم على المجلس لاحراقه وهدمه

ولكن دي ففراس لم يلبث ان عاد وخرج من باب المجلس في الساعة التاسعة مساء وامامه

المشاعل تنير طوبق المركبة · فهتف خمسون الف شخص كانوا في انتظاره هتافاً طبق السماء

وما زالوا به حتى اوصلوه الى ساحة الاعتصاب حيث كانت المشنقة منصوبة · وكان الزحام حولها شديداً

وحين وصول دي ففراس الى المشنقة التفت فابصر امامه البارون دي زانون (كاليوسترو) فاشار اليه مسلماً فتقدم منه احد الرجلين اللذين زاراه في سجنه لنزع ملابسه وهمس في اذنه اتريد الفرار الآن فان ذلك لا يزال في الامكان

فاشار دي ففراس برأسه اشارة سلبية

وحينئذٍ جاءه الجلاد واصعده الى المشنقة

فلما ارتقى الدرجة الاولى التفت الى الناس الذين كانوا حوله وقال · ايها السادة انني اموت بريئاً فصلوا من اجلي

ثم صعد درجة ثانية وقال مثل ذلك القول · وصعد درجة ثالثة وهي الاخيرة وقال مثله ايضاً · ولكن قبل ان يسحب الجلاد باب الفوهة الذي تحت قدميه تقدم منه الرجل الذي مرّ ذكره وهمس في اذنه قائلاً · اقبل نصيحتي وارضَ بالفرار · فاجاب ذلك الرجل النبيل · كلا كلا

وحينئذٍ سُحب الباب من تحت قدميه فسقط دي ففراس معلقاً من عنقه بين الارض والسماء وراح شهيد شهامته ونبله

وكان بازاء المشنقة فتى واقف ينتظر نهاية هذه الحادثة الاليمة بصبر فارغ فلما تدلى جسم ففراس وقضي الامر اسرع الى مركبة كانت هناك وسار بها كالبرق الخاطف الى قصر « مونسيو » شقيق الملك

وكان مونسيو ينتظره بصبر فارغ وقد آلى على نفسه ان لا يجلس الى مائدة الطعام قبل ان يسكن خاطره بشان ففراس لانه كان يخشى ان تبدر منه بادرة او ان يضعف او يخور عزمه فيقول عن مونسيو شريكه في المؤامرة ما لا يجب ان يقوله · فلما راى فتاه ورسوله عائداً ساله ماذا قال · فاجاب الفتى لم يقل شيئاً ياسيدي بل مات كالابطال هادئاً ساكتاً

فبدت حينئذ لوائح السرور على وجه مونسيو وقال فلننهض الى الطعام اذاً ولنشرب نخبه من خمر « الثبات »

ثم جلسوا يا كلون ويضحكون ويتحادثون كانه لم يكن شيء مما كان .... وهكذا الكبار يا كاون الحصرم والصغار يضرسون

الفصل التاسع

﴿ اسد ولبوة ﴾

(بهذه القبلة نجت الملكية)

وبعد انقضاء بضعة ايام على هذا الحادث الاليم كان وبر خادم الملكة الخاص يدخل على الملكة رجلاً عظيم الهامة مهيب المنظر ولكن فيه لوناً يدل على ضعفه ومرضه . وكان هذا الرجل هو الخطيب ميرابو . وكانت هذه اول مرة يقابل فيها الملكة ماري انطوانت

فلما وصل وبر الى باب غرفة الملكة فتح الباب وقال : المسيو دي ميرابو . ثم تنحى عن الباب ليمر الزائر

ولو لم يتنح وبر عن الباب لسمع ضربات قلب ميرابو في صدره الواسع لان قلبه مع جرأته المشهورة كان في تلك الساعة يختلق خفقاناً شديداً

ولما سمعت الملكة اعلان قدوم ميرابو نهضت مسرعة وخطت نحو الباب وقلبها يخفق ايضاً لشدة تاثرها من هذه المقابلة الاولى

وكانت هذه المقابلة سرية ولم يعرف بها احد حتى رجال البلاط وبطانته

فدخل ميرابو على الملكة وخطا بعض خطوات في الغرفة ثم وقف وانحنى باحترام مسلماً

فبادرته الملكة بالكلام قائلة بصوت يشف عن تاثرها وانفعالها . لقد قالوا لنا يا مسيو دي ميرابو انك تروم الانحياز الينا

فانحنى ميرابو دلالة على رضاه . فاردفت الملكة بقولها . وانك توصلاً لذلك تطلب تغيير الوزارة

فانحنى ميرابو مرة اخرى

فقالت الملكة ولكن من سوء الحظ لم يتم ذلك وليس الذنب علينا

فقال ميرابو حينئذ . انني اصدق هذا الكلام ياسيدتي ولا سيما لانه من جلالتك . واعلم ان الذنب في ذلك ذنب الذين يزعمون انهم مخلصون للملكية

فقالت الملكة . ماذا نعمل ايها الكونت فان الملوك لا يستطيعون اختيار اصدقائهم

واعوانهم على ما يشاؤن كما انهم لا يستطيعون اختيار اعدائهم . وكم من مرة اثار علينا اعواننا واصدقاؤنا احزاناً ومشاكل كثيرة . ومن سوء حظنا ان الذين يهاجموننا من اصحاب العقول الكبيرة والذين يدافعون عنا لا يعرفون كيف يدافعون

قالت ذلك وقد ظهرت في وجهها لوائح الحزن الشديد ورفعت منديلها الى عينيها اخفاء لدمعها

ولا نعلم اذا كان ذلك تاثيراً حقيقياً او تمثيلاً اظهرت فيه الملكة حزنها لاستمالة ميرابو

ومهما يكن من الامر فان ميرابو تاثر لهذا الحزن لا سيما وانه اعتبره بمثابة اعتراف له ورأى فيه اشارة اليه فقال

هل تريدين اياي ياسيدتي بقولك عن المهاجمين . فانني انا ما فتئت ادافع عن حقوق الملكية منذ صباي . وقد جئت الآن اقترح عليكم انقاذ الملكية مع معرفتي ان ذلك قد يكون امراً فات وقته ومضى اوانه ولكن ذلك لا يهمني ولو دفنت تحت انقاضها . ومع ذلك فان سياسة البلاط مع المجمع الوطني سياسة خرقاء لا بد من تغييرها . فان المجمع قرر الكف عن دفع رواتب للامراء المهاجرين والملك لا يزال يدفع لهم مبالغ طائلة . وقد سأل المجمع جلالته غير مرة عن ٦٠ مليون فرنك فائدة فرفض الجواب . وذلك مما اضطر المجمع الى نشر « الدفتر الاحمر » الذي اخطأت الملكية في تسليمه اليه لانه يمس شرف اصدقائها وانصارها

فقالت الملكة ولو كنت ايها الكونت بجانب الملك اما كنت اشرت عليه بتلك الامور التي يشيرون بها عليه ويلطخون بها اسمه ويضعضعون سلطته

- فاجاب ميرابو . لو كنت بجانب الملك يامولاتي لكنت لديه المدافع الشديد عن الحرية المقيدة بسلطة الملك وعن سلطة الملكية المقيدة بالدستور . وليس للحرية التي هي اساس حقوق الملك وحقوق الشعب من اعداء سوى « الاكليروس والنبلاء والبرلمان » اما الاكليروس فلم تبقَ له سلطة في هذا العصر . واما النبلاء فلا غنى عنهم ولذلك يجب الاهتمام بهم واستخدامهم كما يجب الضرب على ايديهم . وهذا امر لا يتم الا اذا اتحدت الملكية مع الشعب . والملكية لا تتحد بالشعب ما دام البرلمان بينهما . فالواجب اذاً هدم البرلمان وافناء قوى الاكليروس واضعاف سلطة النبلاء ليتم اتحاد الملكية بالشعب . هذه هي سياستي فاذا كان الملك يوافق عليها فانا اخدم جلالته والا فليرفضها

فقالت الملكة لا اعلم اذا كانت هذ السياسة سياسة الملك ولكني اقول لك منذ الآن

انها سياستي انا . ولو كان الامر اليَّ لما حدثتُ عنها. ولذلك ارجو منك ايها الكونت ان تطلعني على الطرق التي توصلنا اليها

فنظر ميرابو في عيني ماري انطوانت ليرى اذا كانت صادقة فيما تقول او انها تُظهر غير ما تُبطن . فوجد انها اذا لم تكن مقتنعة بذلك فهي مستعدة للاقتناع به. فراقه هذا الفوز على تلك المراة العظيمة المتكبرة فقال وهو يكتم سروره

ان الطريقة يامولاتي واحدة فاننا قد خسرنا باريز تقريباً ولم يبقَ لنا امل في غير المقاطعات ويسرني ان اقول ان الاكثرية في المقاطعات لنا لان اهلها لا يزالون يحبون الملك والملكية . فليبرح الملك باريز ولكن لا الى خارج فرنسا بل الى روين مثلاً ويقيم في وسط الشعب والجيش هناك . ومن هناك يصدر اوامر اصلاحية متتالية فيستميل جميع الناس اليه انصار الثورة واعداءها فيصبح حبيباً الى الفريقين في آن واحد

فقالت الملكة ولكن الا تخيفك الثورة ورجالها ايها الكونت

فاجاب ميرابو لا اجهل ياسيدتي ان من الواجب ان نترك في هذا العراك كثيراً من الحقوق القديمة ولكنني ارى اننا اذا جارينا رجال الاصلاح قدرنا على غل ايدي رجال الثورة والخراب وشتان بين الفريقين . الا يرضيك ويرضي الملك مثلاً ان تكون ملكيتكم شبيهة بالملكية الانكليزية المقيدة

فقالت ماري انطوانت كيف لا يرضينا ذلك

فقال ميرابو فليساعدني الملك ولتشجعني الملكة وانا انشئ في فرنسا هذه الملكية الثابتة الوطيدة ولو كان في ذلك موتي

فقالت الملكة ثق ايها الكونت بودادي ومساعدتي واسعَ فنحن معك

ثم ابتسمت له ابتسام الوداع

ولكن ميرابو عند هذا الابتسام لم يسلم ولم يخرج بل بقي واقفاً بازائها وقفة الاسد الغضنفر كانه لم يكتفِ بهذا الوداع . ثم قال

— مولاتي ان امك العظيمة ماري تريزه كانت اذا قابلت احداً من رعيتها وارادت توديعه مدَّت اليه يدها ليقبلها

قال ذلك ولبث ينتظر

فنظرت الملكة حينئذ الى ميرابو الى ذلك الاسد الذي لم يكفه انه صار مقيداً بل اصبح يروم التمرغ تحت قدميها .. ثم مدت اليه يدها وهي تخفي ابتسام الفوز والانتصار الذي

ظهر بين شفتيها

فانحنى حينئذ ميرابو وتناول تلك اليد البيضاء الباردة كالجبسين والشفافة مثله وقبلها باحترام وقال

— بهذه القبلة يامولاتي قد نجت الملكية

ثم خرج هذا الرجل العظيم وهو يعتقد بانه سينقذ الملكية

الفصل العاشر

﴿ خيانة المسيو دي ميرابو ﴾

(للجدران اعين وآذان)

قال ميرابو للملكة هذه الكلمة « بهذه القبلة يامولاتي قد نجت الملكية » وذلك دون ان يحسب حساب الايدي والاعين السرية

فانه في صباح اليوم التالي الذي جرت فيه هذه المقابلة هبَّ اهل باريز من نومهم على صراخ باعة الجرائد وهم يصيحون على كراريس في ايديهم : خيانة المسيو دي ميرابو . خيانة المسيو دي ميرابو

وكان ميرابو قد صحا من نومه في ذلك النهار مرتاح النفس مستريح الجسم واخذ يعمل الفكرة في انجاز وعده للملكة . فلما نزل من منزله سمع رجلاً يصرخ ذلك الصراخ « خيانة المسيو دي ميرابو . خيانة المسيو دي ميرابو » فاستوقفه ميرابو ومدَّ يده الى جيبه ثم قال « بكم تبيع خيانة المسيو دي ميرابو ياصاحبي » فاجاب الرجل اعطيها مجاناً يا حضرة الكونت لانه يوجد مائة الف كراس منها

فتناول ميرابو في الحال كراساً منها وفتحه ليرى ما فيه . ولكنه لم يقع نظره على الصفحة الاولى حتى اضطرب واصفر لونه

ذلك انه وجد في هذه الصفحة تفاصيل ديونه كلها والطرق التي وفاها بها البلاط وتاريخ وفائها

ويلي ذلك ذكر الراتب الذي صار يدفعه البلاط اليه في كل شهر وقدره — ستة الاف فرنك

ويليه تفاصيل مقابلته مع الملكة بالامس وما قالته له وما قاله لها

فارتاع ميرابو لتلك الاعين السرية الهائلة التي وراء حجب الخفاء تنظر حتى في اعماق القلوب والسرائر . و بينما كان يقرأ هذا الكراس و يقلب صفحاته واذا برجل قد وضع يده على يده فالتفت ميرابو فابصر الدكتور جيلبار ينظر اليه . فقال له الدكتور وقد وجد في وجهه لوائح الاضطراب والانزعاج . اتراك قد نقدت صبغتك الفلسفية حتى تضطرب لكلام كهذا الكلام

فقال ميرابو

انت لا تعرفني ايها الدكتور . فانا لم اضطرب لانهم قالوا انني بعت نفسي للملك ولكن لانني انظر الى المستقبل فارى ان هذا الكراس صخرة هائلة وضعوها في طريقي لتمنعني من انجاز وعدي . فخوفي اذًا انما هو من عدم مقدرتي على انجاز الوعد الذي وعدته لا من قولهم انني ارتشيت . ومع ذلك فانه كان يجب عليهم ان يقولوا ان المال الذى اخذته انما اخذته اجرة لي لا رشوة . والذي يخيفني ايضاً في هذا الكراس معرفتي بحصول خيانة غير منتظرة وهي اطلاع الحزب الذي سنقاومه على ما جرى بيني و بين الملكة . ولا اكتمك انني لما قابلت الملكة خطر لي ان اكون معها كما كان مازارين اي عشيق ملكة لا كما كان ريشيليو اي وزير ملك . ولو تم لي ذلك لكانت فوائده كبيرة لسياسة فرنسا واوربا معاً . ولكن هل تعلم ما صنعته الملكة بعد خروجي من لدنها . لقد كتبت كتاباً الى عاملها في المانيا تقول فيه ابلغ اخي الامبراطور ليوبولد انني استخدم المسيو دي ميرابو دون ان تكون بيني و بينه علائق جدية

فقال الدكتور جيلبار وهل انت متحقق هذا الامر

فقال ميرابو متحققته من انني وقفت على نفس الكتاب الذي ارسل . وفضلاً عن ذلك هل تعلم بماذا يبحثون اليوم في المجمع الوطني

فقال جيلبار اظنهم سيتباحثون في موضوع الحرب

فقال ميرابو

نعم سيتباحثون في موضوع الحرب . فان النمسا و روسيا وانكلترا و بروسيا اتحدن على فرنسا لخنق جرثومة الثورة فيها . وليس بالمستغرب ان تطلب النمسا و روسيا هذا الطلب فانهما من اعداء الحرية ولكنه مستغرب من انكلترا ذات المبادي الحرة و بروسيا صاحبة المبادىء الفلسفية . وقد نسيت هذه الدول ان ثورتنا ليست ثورة فرنسوية ولكنها ثورة بشرية سيستفيء بها البشر اجمع . وكيف السبيل الى اطفاء نور تطلبه الدنيا بامرها . فلما

ثار البلجيكيون انفقت انكلترا والمانيا على ان تكون بلجيكا للثانيـة ثم ذهبت انكلترا تحتك بحليفتنا اسبانيا في اقصى بلاد العالم · فمذ بلغ هذا الاحتكاك الى الملك امر بتسليح ١٤ سفينة حربية واخبر المجمع الوطني بهذا الامر · وهذه هي نقطة الخلاف · فان بعض اعضاء المجمع يقولون ان اعلان الحرب من حق المجمع والملك يقول ان هذا الحق من حقوقه دون سواه · ومعلوم لديك ان وزارة الداخلية ووزارة العدلية قد خرجتا من يد الملك فاذا خرجت الحرب من يده ايضاً فماذا يبقى له · ومن جهة اخرى ان المجمع لا يثق بالملك ولذلك يروم نزع السيف من يده لان الثورة لم تكمل بعد ويُخشى عليها من ذلك السيف الذي هو سلاح هائل ضدها

اما انا فمع هذا وهذا ساسعى لانجاز وعدي · وساقتحم الاعضاء كلهم واطلب للملك حق اعلان الحرب ولو فقدت اسمي وخاطرت بحياتي · وقد قلتَ لي منذ حين انني مستاء من هذا الكراس · كلا ايها الدكتور انني راضٍ عنه لانه يمكنني من اظهار نفسي والمناضلة جهرًا لا سرًّا لانني بعد ما شاهدته من ضروب التستر والمؤامرات والكتمان القبيح صرت اطلب الحرب والقتال والاخذ والعطاء على مرأى ومسمع من جميع الناس · وكما ان الصواعق محتاجة الى غيوم كثيفة وزوابع شديدة لتظهر منها وتنشأ عنها كذلك انا محتاج الى هياج واضطراب وخصام لاصرخ الصوت الاعلى واكشف الغطاء · فتعالَ اليوم ايها الدكتور واحضر جلستنا فانها ستكون جلسة هائلة

وفي الحقيقة ان جلسة المجمع الوطني في ذلك اليوم كانت جلسة هائلة · فان ميرابو ما وصل الى باب المجمع حتى وجد الشعب حول البناء يزحم بعضه بعضاً وكلهم يصرخون في وجهه « يا خائن ياخائن » فرفع ميرابو كتفيه دلالة على عدم مبالاته بكلامهم ثم دخل الى المجمع

ولكنه ما وضع قدمه في قاعة المجمع حتى صرخ نحو مائة رجل من الاعضاء « هذا هو · هذا هو الخائن · هذا هو المرتشي »

وكان الخطيب بارناف في منبر المجمع يخطب ضد ميرابو · فلما دخل ميرابو الى القاعة شخص اليه وحدق فيه · فصاح به بارناف

نم عنك اتكلم ايها الخائن

فاجابه ميرابو : تتكلم عني · فامضِ اذا في كلامك · اما انا فاني ذاهب لاتنزه ساعة في التويلري ثم اعود بعد فراغك من الخطابة واجاوبك

قال ميرابو هذا الكلام ثم خرج من القاعة شامخ الجبين وفي عينيه برق القوة والعناد ولكن اصوات التهديد والشتائم تبعته الى بعيد

وهكذا صار بارناف يخطب وميرابو يتنزه

ولما وصل ميرابو الى حديقة التويلري وجد حلقة معقودة حول سيدة فاقترب منها واخذ كرسياً وجلس

فلما ابصره الجالسون نهض بعضهم وفروا منه . اما المراة فمدت يدها اليه فرزها ميرابو وقال مازحاً الا تخشين انتِ ياحضرة البارونة من انتقال جراثيم الطاعون مني اليك

وكانت هذه المراة مدام دي ستايل الكاتبة المشهورة

فاجابته : يقال ايها الكونت انك صرتَ من حزبنا . ولذلك فاني اجذبك بيدي الينا

فابتسم ميرابو لهذا الكلام وبعد ثلاثة ارباع الساعة قال للبارونة . انني لما دخلت المجمع منذ حين كان بارناف يخطب منذ ساعة وقد مضت على خروجي من المجمع ثلاثة ارباع الساعة فلا ريب انه يكاد يفرغ من خطابه . ولذلك استاذنك في الذهاب لاردّ عليه

فاجابته البارونة اذهب ايها الكونت وتشجع

وكانت البارونة تحمل بيدها غصناً من الآس وهي تداعب اوراقه بشفتها . فقال لها ميرابو . اعطني ايتها البارونة قضيب الآس فانه يكون طلسماً مشجعاً لي

فاجابته البارونة ولكن احذر الآس ايها الكونت فانه يُتخذ كعلامة للحزن

فاجاب ميرابو . لا بأس اعطني اياه فانه يجدر تكليل الشهداء حتى باكاليل الحزن قبل نزولهم الى ساحة النضال

ثم تناول قضيب الآس من يدها وسلم بلطف وانصرف عائداً الى قاعة المجمع

ولما دخل الى القاعة كان بارناف قد اتم خطابه ونزل عن المنبر والاعضاء هائجون مائجون يصفقون له تصفيقاً عظيماً . الا انهم لما ابصروا ميرابو داخلاً تحول استحسانهم الى تقبيح فاخذوا يصرخون ملء افواههم ويصخبون ويضجون . فقصد ميرابو المنبر ثابت القلب رابط الجاش ووقف فيه فازداد صراخهم واشتدت جلبتهم لانهم كانوا يرومون منعه من الكلام . ولكن ميرابو اغتنم فرصة شيء من الهدوء حصل في المجمع كالهدوء الذي يحصل عادة بين الزوبعة والزوبعة وقال بصوت جهوري

— ما كنت اجهل ان المسافة بين الكابيتول وبين صخرة تاربايينه قريبة جداً (١)

(١) هذا الموقف اعظم مواقف ميرابو . والكابيتول اسم قلعة وهيكل روماني قائم

ففعلت هذه الكلمة في نفوس الاعضاء فعل السحر . فسكتوا واصغوا وكان ذلك مقدمة للانتصار

فما اعظم المواهب الكبيرة التي تتصرف في الناس تصرف الدفة بالسفينة

ولما سمع الاعضاء لميرابو تدفق الخطيب في كلامه تدفق السيل . فكان البحر مائجاً والليث هائجاً . ثم اقترح على المجمع ان يقرر وجوب تخويل الملك حق اعلان الحرب . فرفض المجمع هذا الاقتراح فاشتبك الجدال حينئذ بين الاعضاء وقد صعد ميرابو الى المنبر خمس مرات و بلغت المدة التي تكلم فيها ثلاث ساعات . وما زال يهاجم و يدافع و يبرم و ينقض حتى قرر المجمع قراراً هذا نحواه :

« ان للملك « حق الاستعداد للحرب » و « حق ادارة » القوات الحربية كما يشاء . وعليه ان يعرض على المجمع وجوب اعلان الحرب والمجمع لا يقرر شيئاً من غير « موافقة الملك »

افليس ذلك بمثابة تخويل الملك حق اعلان الحرب

وماذا كان صنع ميرابو بالمجمع لو لم يُنشر ذلك الكراس الذي فضح امره

ولما خرج ميرابو من الجلسة قابله الشعب بصراخ السخط وكادوا يقطعونه ارباً اربا . اما بارناف فانهم حملوه على اكتافهم وطافوا به يهتفون له . فمسكين انت يا بارناف لا تسكر بخمر الفوز فسياتيك يوم يصيحون فيه ايضاً « خيانة المسيو بارناف »

الفصل الحادي عشر

﴿ اكسير الحياة ﴾

وكان مثل الخطيب ميرابو في الجلسة التي تقدم ذكرها مثل المرشال دي ساكس في واقعة فونتنوى . فانه اقام طول النهار فوق متن جواده وهو رابط الجاش والقوة ظاهرة في

على اكمة كابيتولين في رومه وهي احدى الآكام السبع التي بُنيت عليها رومة . وكان قدماء الرومانيين يكللون في هذا الهيكل الابطال الذين يخدمون الوطن خدمة جليلة . وبجانب الكابيتول صخرة يسمونها صخرة تار بابينه كانوا يقذفون منها الذين يخونون الوطن عقاباً لهم . وقد اراد ميرابو بهذه العبارة ان العظمة قد تكون قريبة من الضعة بدليل ان الشعب يضع اليوم الرجل الذي كان يعظمه امس

وجهه مع ما كان ينتابه من المرض والالم والتعب . ولكن لما هزم جيشه الجيش الانكليزي واطلق آخر مدفع دلالة على انتهاء القتال سقط خائر القوى ضعيف العزم في نفس ساحة القتال التي اخذها من الانكليز واجلاهم عنها

وكذلك حدث لميرابو . فانه كان في المجمع الوطني قوياً هائلاً كأنه في عنفوان الشباب . ولكنه لما انتصر على المجمع وجعله يقرر القرار الذي تقدم عاد الى منزله خائر العزم ضعيف القوى كان قوته كلها قد نفدت في ذلك العراك الذي حدث

ولما دخل منزله القى بنفسه على الارض فوق المساند في وسط الازهار

ذلك ان ميرابو كان مولعاً بامرين . بالازهار و بالنساء . ولقد كان اصيب في هذا العام باعتلال شديد لان ما لقيه من الاضطهاد والسجن بسبب حوادث شبابه اثر في بنيته تاثيراً سيئاً . هذا فضلاً عن انه كان جباراً لا يرفق بصحته ولا يعبأ بها . واذا كان الانسان شاباً وكل ما في جسمه من الاعضاء نشيطاً قوياً فانه يحتمل هذا الاهمال وكلما ضغط على نفسه واستزادها قوة زادته منها . ولكنه متى بلغ الكهولة صارت تلك الاعضاء غير قادرة على احتمال شدة ضغط الدماغ فتعجز عن مجاراته

وكان ميرابو قد بلغ هذا الدور من عمره

و بينما كان ينقلب على المساند تقلب الافعى من شدة الضعف والالم قُرع جرس منزله ثم دخل الدكتور جيلبار

فلما رآه ميرابو مدَّ يده وجذبه اليه من غير ان يتكلم لشدة ضعفه . فجلس الدكتور بجانبه وقال . اني اهنئك بفوزك ايها الكونت فانك انتصرت انتصاراً باهراً

فاجاب ميرابو . نعم ولكني اذا انتصرت انتصاراً آخر كهذا الانتصار فقدت الحياة بسببه

فنظر جيلبار الى ميرابو وقال نعم اني اراك مريضاً

فقال ميرابو

ولو كان غيري مكاني لمات منذ زمن بعيد . آه ايها الدكتور لا تعطني دواء لشفائي بل اعطني دواء ليجعلني اقوى على المعيشة مدة ايضاً

فاخذ جيلبار يد ميرابو وجس نبضه ثم قال . ماذا اقول لك أأشير عليك بالراحة مع معرفتي ان نفسك مطبوعة على الحركة . ام اشير عليك بطرح هذه الازهار التي تسمم هواء غرفتك في الليل مع ما اعرفه من حبك لها وعدم استغنائك عنها . لا اقدر ان اشير عليك

بذلك لانك لا تعمل به · فعش ايها الكونت كما تحب وتشاء ولكن اجعل حولك ازهاراً بلا رائحة ونساء بلا حب

فقال ميرابو

دكتور دكتور احيني فانك تحيي بذلك عالماً كبيراً · اني لا اعرف عذاباً تحت قبة السماء اشد من عذاب الانسان اذا كان يحس بان في نفسه قوة قادرة على رفع شان مملكة وهو عاجز عن انفاذ تلك القوة · احيني لا من اجلي فقط بل من اجل الملكية ايضاً

ثم ان ميرابو قبض بقبضته القوية على جلد معدته وضغط عليه من الالم

فقال له الدكتور وهل تتألم

فاجاب ميرابو اتألم الماً شديداً لا يحتمل · وقد يخطر لي احياناً انهم يسممونني بالفعل كما يسممون صيتي بالقول · فهل تعتقد بسم بورجيا ايها الدكتور

فقال جيلبار كلا ولكني اعتقد بذلك السيال المتقد الذي يفجر الاناء الذي يوضع فيه ·

وقد اشار جيلبار بهذا القول الى نفس ميرابو الدائمة الالتهاب والى زجاجة صغيرة تناولها من جيبه

ثم قال لميرابو · فلنجرب يا كونت تاثير هذا الدواء فيك

فقال ميرابو وما هذا الدواء

فقال جيلبار ان احد اصدقائي الذي اود ان يكون صديقاً لك ايضاً قد ارشدني الى شراب غريب الفعل فيما يختص بضعف الجسم · ولقد جربته مرة في نفسي فعجبت من تاثيره فهل ترضى بتجربته فيك

فقال ميرابو هات هات ايها الدكتور فكل شيء مقبول من يدك

فقال الدكتور ادع اذاً خادمك ليحضر لنا شيئاً من الكحول لتخفيفه به

فقال ميرابو وما هذا الدواء الذي يخفف بالكحول · لا ريب انه لهيب نار

ثم دعا خادمه فجاء بشيء من الكحول في ملعقة صغيرة فوضع فيها الدكتور شيئاً من الزجاجة التي في يده بقدر الكحول الذي فيها ثم حركها فامتزجت المادتان وصار لونهما كلون الابسنت · ثم ناولها الى ميرابو · فاخذها ميرابو وصبها في فمه دفعة واحدة

ولكن لم يلمس هذا الشراب مريء ميرابو حتى اضطربت له كل اعضاء جسمه فصاح بالدكتور · لقد احسنت ايها الدكتور بتنبيهي الى قوته لانني اشعر كأنني ابتلعت

صاعقة بفمي

ثم احنى ميرابو راسه على صدره ولبث هنيهة مغمض العينين محني الراس على هذا الوجه

ولكنه بعد برهة رفع راسه بغتة وتنفس الصعداء بارتياح عظيم وقال . آه ياد كتور انك رددت الحياة اليَّ

فقال جيلبار وهل شعرت بتحسن في صحتك

فقال ميرابو . لم اشعر بتحسن في صحتي فقط بل شعرت ان قواي كلها قد عادت اليَّ. آه انني احس الآن بانني اصبحت ولا احد يقدر عليَّ. واذا سقطت الملكية الآن على رامي فانني قادر على رفعها ومنع سقوطها . فكيف السبيل للحصول على هذا الدواء الذي اسميه اكسير الحياة

.فقال الدكتور عدني انك لا تشرب من هذا الدواء الا مرتين في كل اسبوع وانا أدفع اليك هذه الزجاجة

فقال ميرابو اعدك بما تريد فهاتها

فالقى جيلبار الزجاجة اليه فاخذها ميرابو مسرورًا بها

فقال له الدكتور وماذا عزمت ان تفعل بعد اليوم

فقال ميرابو عزمت ان استاجر منزلاً كبيرًا في ضواحي باريز واعيش فيه واقتني الخيل والمركبات لان الراتب الذي اتناوله اليوم من البلاط يمكنني من ذلك

فقال جيلبار انك تحسن صنعاً بعيشتك في الخلاء لان ذلك مفيد لصحتك ولكن يجب ان تحسن اختيار منزلك

فقال ميرابو اتذهب معي اليوم الى ضواحي باريز لتشاهد المنزل الذي عزم خادمي على استئجاره فانك كطبيبي مسؤل عن ذلك

فاجاب جيلبار ان صحة عزيزة كصحتك توجب عليَّ كل شيء نافع لها ولذلك فانني اذهب معك

وفي ذلك المساء ذهب ميرابو وجيلبار الى ارجانتيل في ضواحي باريز لمشاهدة القصر الذي عزم ميرابو على استئجاره

الفصل الثاني عشر

﴿ عود الى اصحابنا القدماء ﴾

بما اننا تركنا في الفصل السابق ميرابو وجيلبار قاصدين الخلاء فلنعد نحن ايضاً بالقارىء الى الخلاء حيث مزرعة الاب بيلو على سبيل الاستراحة من عناء التفكير في الامور السياسية لنرى ماذا جرى لكاترين وحبيبها ايزيدور و بيتو و بيلو

وقد تقدم الكلام ان بيلو استاذن الدكتور جيلبار في العودة الى مزرعته فاذن له على شرط ان يحضر الى باريز متى مست الحاجة الى صوته الجهوري وقبضته القوية وان عودته هذه كانت بناء على ما بلغه من بيتو عن اختلال شؤون مزرعته

ولما وصل الاب بيلو الى هذه المزرعة ترجل عن جواده ورام الدخول اليها فلقي في وجهه رجلاً يمنعه من الدخول وهو الدكتور رينال طبيب تلك الناحية . فاستغرب بيلو هذا المنع فابلغه الدكتور ان ابنته كاترين مصابة بحمى دماغية افقدتها الرشد منذ بضعة ايام فلا يجب والحالة هذه الدخول عليها خوفاً من ازعاجها

فطار صواب بيلو لانه كان يحب ابنته حباً يقرب من العبادة وسال الدكتور بلهجة الاب الخائف على حياة ابنته . أفي مرضها خطر ايها الدكتور

فاجاب الدكتور كل مرض فيه خطر اذا لم يعالج المعالجة الواجبة . فدعني اعالج ابنتك كما اريد وعلى الله شفاؤها

فقال بيلو كن يسترحم استرحاماً ولكن الا تسمح لي برؤيتها دقيقة واحدة

فقال الدكتور اسمح لك برؤيتها وتقبيلها على شرط ان تعدني انك لا تعود تدخل عليها ثلاثة ايام متوالية

فرضي بيلو بهذا الامر ودخل على كاترين . فرآها ممددة على فراشها ولا حراك بها وعلى راسها عصابات مبلولة بماء الثلج . فدنا منها بيلو بحنو وقبلها في وجنتيها . وكانت كاترين شديدة الهذيان فاخذت تحكي في ذهولها وقد ذكرت اسم بيتو وايزيدور في كلامها

فلما سمع الاب بيلو اسم ازيدور دي شارني تحول حنوه الى جد ومرت فوق جبينه غيمة كثيفة فعاد من الغرفة متغيراً

وكان بيلو يتبعه وقد شاهد آثار الغيمة التي بدت في جبينه

اما الدكتور رينال فحين خروج بيلوامسك بيتو وطلب منه ان يكون على استعداد لياتيه حينما يدعوه

فاستغرب بيتو هذا الكلام واخذ يسأل نفسه ماذا يريد الدكتور مني

وكان سبب دعوة الدكتور لبيتو ان الدكتور كان يسمع كاترين تنادي في ذهولها بيتو وايزيدور . وكانت تلفظ الاسم الثاني بحنو اشد من الحنو الذي كانت تلفظ به اسم الاول . فاستنتج الدكتور من ذلك ان الثاني حبيب والاول صديق

وفضلاً عن ذلك فان الدكتور رينال كان من سكان تلك النواحي وقد سمع ليلة هجوم الشعب على فرساليا بمقتل جورج دي شارني في القصر وبسفر اخيه ايزيدور دي شارني في اليوم التالي من تلك النواحي الى باريز وبوجود المدموازل كاترين مغمى عليها على الطريق قريباً من مزرعة ابيها . ولما دُعي الدكتور لمعالجتها وسمع اسم ايزيدور من فمها لم يبقَ لديه شك في حبها لايزيدور دي شارني . وبما ان بيتو عائد من باريز فلا بد ان يكون واقفاً على اخبار ايزيدور . فاذا اطلع كاترين على شيء منها وسكن بالها من جهة حبيبها فان ذلك خير دواء لدائها

ولذلك سأل بيتو ان يستعد لمواجهته

وبعد برهة نادى الدكتور رينال بيتو فدخل بيتو الى غرفة المريضة فقال له الدكتور ان يمسك يد كاترين لفصدها لان الحمى كانت قد اشتدت عليها . ولما فصد الدكتور مريضته وبرز دمها وابصر بيتو ذلك الدم الذي لو طُلب منه ان يبذل حياته في سبيله لما قعد عن ذلك طار لبه وخار عزمه فترك يد كاترين في يد الممرضة والقى نفسه على مقعد هناك

وبعد الفصد تحسنت صحة كاترين وانتظم نبضها وتنازلت حرارتها فاخذ الدكتور بيتو وخرج من الغرفة وابلغ ابا كاترين وامها انه سائر ببيتو الى فيلله كوتريه ليبعث معه بدواء مسكن

وبعد ساعة عاد بيتو وهو يضرب اخماساً لاسداس لما دار بينه وبين الدكتور رينال من الحديث المختص بايزيدور . وقد علّم الدكتور بيتو كيف يعامل كاترين

ولما عاد بيتو الى غرفة المريضة كانت لاتزال مستغرقة في ذهولها الشديد ولكنها بعد هنيهة تململت وفتحت عينيها فوقع نظرها على بيتو فحسبت ان ما تراه رؤيا لا حقيقة فاغمضت عينيها ولكنها عادت وفتحتها بعد برهة . فلما ابصرها بيتو نهض اليها وقال وهو يمد ذراعيه . مدموازيل كاترين

فابتسمت له كاترين وقالت هذا انت يامسيو بيتو ؟ ثم التفتت الفتاة فابصرت الممرضة في الغرفة فالقت رأسها على وسادتها

فعلم بيتو ان كاترين تريد الكلام ولكنها لا تقدر عليه في حضور الممرضة فذهب الى المراة وسالها ان تستريح فيسهر هو على المريضة فسرت الممرضة بذلك وذهبت الى مقعد هناك ورقدت عليه رقادًا عميقًا

اما بيتو فمذ تحقق نوم الممرضة دنا من كاترين وقال : كنت اعلم انك تحبينه يامدموازيل كاترين ولكنني كنت اجهل انك تحبينه الى هذا الحد

فلما سمعت كاترين هذا الكلام اثرت فيها مكارم اخلاق بيتو ففتحت له خبايا قلبها وقالت آه يامسيو بيتو ليتك تعلم مقدار تعاستي

فقال بيتو انني وان كنت يامدموازل كاترين لا يروقني الكلام عن المسيو ايزيدور الا انني استطيع ابلاغك شيئًا عن اخباره اذا شئتِ

فقالت كاترين . انتَ ؟

فقال بيتو نعم يامدموازل كاترين

فقالت كاترين وهل رايته

فقال بيتو لم أره وانما رآه المسيو سيباستيين فور في طريقه الى باريز

ثم قصَّ عليها بيتو قصة ايزيدور وسيباستيين وابلغها خبر سفر ايزيدور في مهمة خاصة الى اسبانيا او ايطاليا

فاطرقت الفتاة هنيهة ثم تنهدت وقالت لا ريب انه سيصلني غدًا كتاب منه

فاجفل بيتو وقال يصلك كتاب منه يامدموازل كاترين . ولكنني اخشى ان يقع هذا الكتاب في يد ابيك

فقالت كاترين واين ابي ليقع الكتاب في يده

فقال بيتو ابوك في المزرعة وقد قدم اليوم اليها

فزاد اصفرار كاترين وقالت بحدة . بيتو بيتو اذا وقع الكتاب في يدي ابي فانه يقتلني لا محالة

فقال بيتو وقد زاد قلقه فما العمل إذًا

فقالت كاترين اذهب الى موزعة البوسطة في فيلله كوتريه وقل لها ان تضع لك الكتاب الذي يرد باسمي في احد حوانيت البلدة فتاخذه منها

فقال بيتو ساذهب حين شروق الصباح

فقالت كم الساعة الآن · فقال الساعة الخامسة · فقالت اسرع اسرع ولا تضع الوقت

فقال بيتو ولكن يجب ان نسقيك الدواء يامدموازل كاترين · فقالت الفتاة اسرع وعد لي بالكتاب فانه يكون خير دواء لي

فخرج بيتو من الغرفة ليذهب في تلك الساعة الى فيلله كوتريه · ولكنه وجد في خروجه الاب بيلو امامه · فساله بيلو بصوت جهوري الى اين يابيتو · فقال مضطرباً الى فيلله كوتريه · فقال بيلو وماذا تصنع فيها · فسكت بيتو ثم قال · · اني ذاهب لمقابلةالطبيب · · فقال ولماذا · قال لانه طلب مني ان اخبره عن صحة مدموازل كاترين في الصباح · وها قد طلع الصباح · فقال بيلو اذهب وعد سريعاً

ولكن الغضب كان ظاهراً في هيئة الاب بيلو وصوته

فذهب بيتو واخبر الدكتور رينال عن صحة كاترين ثم قابل موزعة البريد واخذمنها كتاباً بعنوان « مدموازل كاترين بيلو » وعاد مسرعاً الى كاترين

وعند مروره بغرفتها تسلق الجدار واطلّ من النافذة فابصر كاترين شاخصة فيها تنتظره فاخذ الكتاب وحذفه اليها فوقع في فراشها · فاشرق حينئذ وجه كاترين اما بيتو فانه عاد ودخل الى البيت من الباب · وبينما هو داخل وجد بيلو في وجهه فوقف بيتو وصار وجهه احمر كالدم من شدة اضطرابه

فقال له بيلو ما لك يابيتو فقال بيتو لاشيء يامسيو بيلو فقال له اني اراك مضطرباً فقال كلا يا مسيو بيلو فانني عدت بخير وسلامة · ثم انسلّ ودخل الى غرفة كاترين

وكانت كاترين قد قرأت الكتاب واصابتها نوبة شديدة بعد تلاوته فصارت تهذي في نومها وتقول سردينيا · · تورين · · ايزيدور · · بيتو · ·

فلما دخل بيتو عليها قصت عليه الممرضة الخبر فدنا بيتو من كاترين ففتحت الفتاة بعد برهة عينيها · ولما صادفت عيناها عيني بيتو قالت له تقدم تقدم فدنا منها بيتو فسالته عن سردينيا وتورين واخبرته ان ايزيدور قال لها في كتابه انه سافر اليها · ثم طلبت من بيتو ان يهتم للرسائل التي ستصلها منه على التوالي · فقال بيتو فكيف العمل · قالت يجب عليك ان تنتقل من المزرعة وتعود الى هرامونت ومن هناك تقصد في كل اسبوع دار البريد في فيلله كوتريه وتسال عن كتاب المدموازل كاترين · فقال بيتو وبعد ذلك · قالت بعد ذلك تجيء بالكتاب في المكان الذي وجدتني فيه مغمى عليّ فاتناوله من هناك

وعلى ذلك تم الاتفاق بين كاترين و بيتو فخرج بيتو من المزرعة عائداً الى هرمونت مسقط راسه ارضاء لكاترين وخدمة لها طبقاً للقاعدة التي قضت بها الديانة المسيحية على الناس وهي انكار الذات لخدمة الغيرلان بيتو كما هو معلوم عند القارىء كان يحب كاترين

الفصل الثالث عشر

﴿ احتفال قروي ﴾

وكان بيتو في اعلى منزلة في هرامونت مسقط راسه . ولما سافر منها على حين بغتة قال السكان انه سافر بناء على امر من لافاييت و بعضهم قال انه سافر بناء على امر من الملك نفسه

وكان الحرس الوطني في هرامونت لا يزال يذكر قائده بيتو و يتنسم اخباره و يترقب عودته

فلما عاد بيتو كانت عودته عيداً عاماً في القرية . وقد ذكرنا ان الدكتور جيلبار كان قد منحه خمسة وعشرين ذهباً ليسلح بها حرس هرامونت و يبتاع لهم ملابس عسكرية ففي يوم وصول بيتو الى هرامونت زاره ضابطا الفرقة فسالهما بيتو ان يبلغا الجنود بوجوب الاستعداد للتمرين والاستعراض بعد بضعة ايام

ولما حان يوم الاستعراض استعرضهم بيتو و بعد الاستعراض اخبرهم بوجوب الذهاب الى خياط القرية ليلبسوا عنده الملابس العسكرية الجديدة التي تبرع عليهم بها لافاييت بامر من الملك

فكان لهذا الامر دوي شديد في تلك القرية وما جاورها

وكان رجال الحكومة يستعدون في يوم الاحد التالي لاقامة احتفال عمومي في فيلله كوتريه فبنى رجال الحكومة مذبحاً جميلاً في فيلله كوتريه زينوه احسن زينة وسموه « مذبح الوطن » ودعوا الاب فورتيه الذي تقدم ذكره غيرة مرة الى اقامة القداس فيه

ذلك ان كل احتفال من احتفالات فرنسا القديمة كان لاغنى عن القداديس فيه

وفي يوم الاحد التالي المعين لذلك الاحتفال قُرعت الاجراس منذ الساعة الخامسة صباحاً ودقت الطبول فنهض اهل فيلله كوتريه وضواحيها استعداداً لذلك الاحتفال العظيم . وكانت جنود النواحي قد دُعيت الى الاشتراك في هذا الاحتفال وقد خُصّت جنود هرامونت بالمقام الاول امام المذبح لان شهرتها كانت قد طبقت الضواحي . ولما

اشرقت الشمس توافد الناس من كل جانب الى فيلله كوتريه لحضور الاحتفال وقدم حرس هرامونت بملابسهم الجديدة الجميلة يتقدمهم بيتو على جواد ابيض كلافاييت وكأنه لافاييت فزحم السكان تلك الفرقة الباسلة من كل جانب واخذوا يهتفون لها حتى اوصلوها الى المذبح فوقفت هناك و وقف قائدها في مقدمتها

ولما استقر المكان بيتو مدّ بصره الى حوله فابصر قريباً منه امرأة تطيل النظر اليه فتاملها فوجد انها عمته انجليك التي كان له معها شأن في مقدمة الرواية . فرفع بيتو راسه وقال بهيئة العظمة « بونجور مدام انجليك » وقد قصد بيتو بهذا القول الانتقام منها لان عمته عازبة كما يعلم القراء . فمدت العمة حينئذٍ ذراعيها الى السماء وقالت « يا له من شقي فان المجد قد افقده صوابه » ثم اردفت ذلك بقولها بعد برهة « لا ريب انني اخطأت في اسائتي معاملته فان العمات ترثن اولاد الاخ .... »

وقد سمع بيتو قولها الاول والثاني ولكنه اظهر انه لم يسمع شيئاً

وفي هذه الاثناء لاحظ بيتو ان سيدة من بين الجمع تشير بمنديلها اليه . فامعن النظر فيها فوجد انها مدموازل كاترين

وكانت كاترين قد نهضت من فراشها لشفائها من دائها وهي صفراء اللون ولكن صفرتها زادتها جمالاً على جمال

فاسرع بيتو فاغمد حسامه الذي كان بيده ثم تناول قبعته عن راسه احتراماً و بادر اليها

ولو كان يسير لمقابلة لافاييت حينئذ لما رفع قبعته عن راسه بل كان اكتفى بان يمسكها من طرفها

ولما بلغ بيتو الى كاترين مدت اليه الفتاة يدها باسمة وقالت . ما احسن منظرك يامسيو بيتو تحت هذا الثوب العسكري ثم ضغطت على يده وقالت بصوت منخفض اشكرك اشكرك فانني اخذت الكتاب الذي وضعته في نقر الشجرة . وليتك تعلم مقدار حبي لك

اما بيتو فشعر عند هذا الكلام بان الارض تميد به فحاول الكلام ولكنه لم يقدر عليه . و بينما هو في هذه الحيرة الشديدة واذا به يرى جمهوراً غفيراً من الناس قادماً بضجة وغوغاء نحو المذبح فعاد الى نفسه وحينئذ جذب يده من يد كاترين واسرع الى جنوده ووقف في مقدمتهم استعداداً لما عساه ان يطرأ

اما سبب قدوم هذا الجمع الغفير بهذه الحركة والضوضاء فبيانه في ما يلي

الفصل الرابع عشر

﴿ الاكليروس والثورة ﴾

وكان السبب في تلك الحركة والغوغاء ان الاب فورتيه ابى الحضور لاقامة قداس على « مذبح الوطن وقد كادت تمر ساعة القداس ولم يحضر . فلما علم الشعب بذلك تجمهر حول منزل الاب فورتيه ثم حضر شيخ القرية بنفسه لرفع رجائه الى الراهب لعله يلين لالتماسه

اما الاب فورتيه فانه كان مصرًّا على الامتناع وقد امر باقفال ابواب الكنيسة ليمنع رجال الحكومة من اخذ الاواني المقدسة الى « مذبح الوطن » لاقامة القداس فيه اذا تسنى لهم وجود كاهن غيره

فلما درى الشعب بهذا الامر ازداد غيظاً وسخطاً

وحين وصول شيخ القرية الى باب منزل الاب فورتيه كان الاب يقفل بابه في وجوه الحاضرين و يصيح بهم

— اذهبوا يا كفار . اذهبوا يا اشقياء لا تدنوا بابي ولا تقتربوا منه

فقال له شيخ القرية وقد كان يخاف غضبه . ولكن ما يمنعك ياحضرة الاب من الذهاب معنا للصلاة بيننا

فصاح الاب بغضب . انا اذهب واصلي لكم . معاذ الله ان اصنع ذلك . فان عملي يكون بمثابة موافقة على التمرد والعصيان . ومباركة للكفر . وتقديس لنكران الجميل

فقنط شيخ القرية من ذهاب الراهب معه فقال له . لك رايك يا جناب الاب وانت حرٌّ فيما تريد ان تصنع

فقال الاب فورتيه متهكماً . اصحيح انني حرٌّ . حقاً انك كريم يامسيو لونيره

ثم ان الراهب دفع الباب بشدة في وجه شيخ القرية والحاضرين

ولكن الباب لم يندفع و يكاد يغلق حتى هجم من الحاضرين رجل شديد القبضة ودفعه دفعاً شديداً الى الداخل فانفتح بعنف وشدة وكاد يُسقط الاب فورتيه على الارض

وكان هذا الرجل صاحبنا بيلو الذي نعرفه

اما الشعب فانه شعر في الحال بان امراً عظيماً سيحدث بين هذين الرجلين . واما بيلو فانه وقف في الباب بين الاب فورتيه والجمهور وهو كانه الجبل الراسخ في مكانه . ثم

التفت الى شيخ القرية . وقال . ماذا قلت يا حضرة الشيخ . اعد ما قلته على مسمعي . هل تقول ان حضرة الراهب حرٌ في ان يذهب معنا لاقامة الصلاة او لا يذهب هل تقول هذا

فقال الشيخ متلعثماً وماذا اقول اذًا اذا رفض الذهاب

فصاح حينئذ الاب فورتيه مخاطباً بيلو . ابعد يا كافر ابعد ياملعون . انصرف من وجهي . وهم باقفال الباب

فنظر اليه بيلو بعينيه الشديدتين ثم قال برزانة وجدّ . لا تهني بكلامك يا حضرة الراهب والا فانك لا تعلم الامر الذي تدفعني اهانتك اليه . ولكن باحثني لاباحثك . هل لك ان ترفض الصلاة التي يدعوك اليها الناس . انت تقول انك مطلق في رفضها وانا اقول انك مقيد بقبولها . فان الذي يعيش من الامة هو خادم لها . والخادم يجب عليه ان يقوم بخدمته لان كل صاحب اجرة يجب عليه ان يقوم بالعمل الذي يستوفي اجرته

فارغى الاب فورتيه وازبد حين سماعه هذا الكلام . اما الشعب الواقف فانه تحمس لكلام بيلو وصار يصيح بالراهب صياح السخط والغضب . فنظر الاب فورتيه الى بيلو بعين ملئها الغيظ وقال . ولكن الا تعلم ان الكنيسة مستقلة وليس للبشر سلطان عليها

فقال بيلو . لو كنت انكليزياً او المانياً او ايطالياً ايها الاب فورتيه لجاز لك هذا القول . ولكنك تقول انك فرنسوي ماجور من الامة لتصلي لها فيجب عليك والحالة هذه ان تقوم بمهمتك

قال ذلك ثم مدَّ يديه القويتين الى الاب فورتيه واختطفه من مكانه كانه عصفور ودفعه الى الخارج . فانكسرت حدة الاب فورتيه عند ذلك . وقال . تريدون تعذيبي كما تعذب الشهداء فانا راض بهذا العذاب . فقال له بيلو لا عذاب ولا شهداء وانما ناخذك بالرغم عنك الى مذبح الوطن لتصلي لنا وتستنزل نعم السماء علينا

وحينئذ زحم الشعب الاب فورتيه من كل جانب واخذوا يدفعونه امامهم قاصدين المكان الذي اقيم فيه مذبح الوطن . وهذا هو الجمهور الذي شاهده بيتو بينما كان يخاطب المدموازل كاترين

ولما وصل هذا الجمع الى مذبح الوطن كان بيتو واقفاً في مقدمة جنوده وهو مستعد لحفظ الامن وقمع الفتنة اذا طرأ طارىء كما كان يحدث في باريز . ولكن ما اشد ما كانت دهشته حينما ابصر الاب فورتيه معلمه القديم ماشياً بغضب امام بيلو وجماهير الشعب التي كانت

تدفعه من ورائه . فتحركت في الحال عوامل الحنو في قلب التلميذ على معلمه فخطا بيتو من مكانه خطوتين وهو يقول ما هذا ايها الاب بيلو . وكذلك صنعت مدموازل كاترين التي كانت واقفة امام المذبح . اما الاب بيلو فانه اوقف الاثنين بنظرة واحدة وتقدم بالاب فورتيه الى درج المذبح وقال . « هذا هو مذبح الوطن الذي دعوناك الى الصلاة عليه ورفضت . وبناء عليه فانني اعلن الآن عدم استحقاقك لصعود درجاته ... لان الذي يستحق صعود درجاته يجب ان تكون في نفسه ثلاث عواطف : حب الحرية . وحب الوطن . وحب الانسانية . فيا ايها الكاهن . اذا كنت تحب ان يكسر العالم قيوده . اذا كنت مخلصاً لوطنك . اذا كنت تحب البشر اكثر من نفسك ... فاصعد بجزاءة الى هذا المذبح واسأل الله لنا .. ولكن اذا كنت لست افضل رجل بيننا فدع مقامك للافضل واذهب في سبيلك ...

فصاح الاب فورتيه حينئذ سحقاً لك ما اشقاك و يا ليتك تعرف الذين تناصبهم العدوان الآن

فاجاب بيلو بحماسة . بل اعرف الذين شهرت عليهم الحرب الآن . اني شهرت الحرب على الذئاب والثعالب والافاعي وكل ذي ناب ... وهذا الحي ودي فلتنهشني فانني لا اعبأ بها لانها لا تقدر عليّ

فصفق الجمهور لهذه الحماسة واما الاب فورتيه فانه عاد من حيث اتى ممتلئ الصدر حقداً وغضباً

ولكن لم تخمد ثورة الاضطراب حتى بدا القلق في وجوه الحاضرين فانهم كانوا مستعدين لحضور القداس قياماً بالاحتفال . وكيف يتم الاحتفال بلا قداس

فوقف بيلو بينهم وقال . لماذا تشكون من ذهاب الكاهن فاننا نضع احتفالاً مكان احتفال . وبدلاً من القداس الذي كنا عزمنا عليه اني اتلو عليكم الآن صورة « حقوق الانسان » التي قررها المجمع الوطني في هذا العام فانها قانون الحرية وانجيل المستقبل

فصفق الحاضرون وارتاحوا الى ذلك فصعد حينئذ بيلو الى اعلى درج المذبح ووقف شيخ القرية عن يمينه والقائد بيتو عن شماله . الاول يمثل القوة القانونية والثاني القوة العسكرية . ومن هناك اخذ بيلو يتلو على الشعب بصوته الجهوري صورة حقوق الانسان التي كان قد حفظها

وهذه الحقوق السامية التي يجب ان يطأطا امامها راس كل انسان هي اساس الثورة وحجر زاويتها وهذا نصها

الفصل الخامس عشر

﴿ اعلان حقوق الانسان ﴾

المادة الاولى

يولد الناس و يعيشون احرارًا متساوين في الحقوق · ولا يمتاز بعضهم عن بعض الا فيما يختص بالمصلحة العمومية (اي ان نفع الجمهور هو قاعدة الامتياز)

المادة الثانية

غرض كل اجتماع سياسي حفظ الحقوق الطبيعية التي للانسان والتي لا يجوز مسها · وهذه الحقوق هي : حق الملك وحق الامن وحق مقاومة الظلم والاستبداد

المادة الثالثة

الامة هي مصدر كل سلطة · وكل سلطة للافراد او لجمهور من الناس لاتكون صادرة عنها تكون سلطة فاسدة

المادة الرابعة

كل الناس احرار والحرية هي اباحة كل عمل لا يضر احدًا · و بنـاء عليه لا حدّ لحقوق الانسان الواحد غير حقوق الانسان الثاني · و وضع هذه الحدود منوط بالقانون دو ن سواه

المادة الخامسة

ليس للقانون حق في ان يحرّم شيئًا الا متى كان فيه ضرر للهيئة الاجتماعية · وكل ما لا يحرمه القانون يكون مباحًا فلا يجوز ان يُرغم الانسان به

المادة السادسة

ان القانون هو عبارة عن ارادة الجمهور · فلكل واحد من الجمهور ان يشترك في وضعه سواء كان ذلك الاشتراك بنفسه او بواسطة نائب عنه · ويجب ان يكون هذا القانون واحدًا للجميع · اي ان الجميع متساو ون لديه · ولكل واحد منهم الحق في الوظائف والرتب بحسب استعداده ومقدرته ولا يجوز ان يُفضل رجل على رجل في هذا الصدد الا بفضيلته ومعارفه

المادة السابعة

لا يجوز القاء الشبهة على رجل ايًا كان ولا القبض عليه ولا سجنه الا في المسائل التي

ينص عليها القانون و بموجب الطرق التي يذكرها · وكل من يغري اولي الامر بعمل جائر او كل موظف يعمل عملاً جائرًا لا ينص عليه القانون يعاقب لا محالة · واذا تمرد استحق العقاب

المادة الثامنة

لا يجوز ان يعاقب القانون الا العقاب اللازم الضروري · ولا يجوز ان يُعاقب احد الا بموجب نظام مسنون قبل الجرم ومعمول به قانونياً قبله

المادة التاسعة

كل رجل يُحسب بريئًا الى ان يثبت ذنبه · واذا مست الحاجة الى القبض عليه فيجب ان يقبض عليه بلا شدة الا متى دعت الحاجة الى ذلك · وكل شدة غير ضرورية يعاقب صاحبها

المادة العاشرة

لا يجوز التعرض لاحد لما يبديه من الافكار حتى في المسائل الدينية على شرط ان تكون هذه الافكار غير مخلة بالامن العام

المادة الحادية عشرة

ان حرية نشر الافكار والآراء حق من حقوق كل انسان · فلكل انسان ان يتكلم و يكتب و ينشر اراءه بحرية · ولكن عليه عهدة ما يكتبه في المسائل التي ينص القانون عليها

المادة الثانية عشرة

ان السهر على حقوق الناس يستوجب انشاء قوة عمومية اي هيئة حاكمة · فهذه الهيئة تنشأ اذًا لمنفعة الجميع

المادة الثالثة عشرة

بما ان الهيئة الحاكمة تحتاج الى نفقات لادارة الشؤون فيجب وضع ضريبة عمومية على جميع الوطنيين · اما مقدار هذه الضريبة فيجب ان يكون مناسباً لحالة الذين يدفعونها

المادة الرابعة عشرة

لكل الوطنيين الحق في ان يراقبوا اموال الضريبة سواء كانت المراقبة بانفسهم او بواسطة نوابهم · ولهم ايضاً البحث عن الوجوه التي تنفق فيها وتعيين مدة جبايتها

المادة الخامسة عشرة

للهيئة الحاكمة والمحكومة الحق في ان تسأل كل موظف عمومي عن ادارته واعماله وان تناقشه الحساب فيها

المادة السادسة عشرة

كل هيئة لا تكون فيها حقوق الافراد مضمونة ضمانة فعلية بواسطة السلطة العمومية ولا تكون فيها السلطة التشريعية (اي البرلمان) والسلطة التنفيذية (اي الحكومة) منفصلتين الواحدة عن الاخرى انفصالاً تاماً تكون هيئة غير دستورية

المادة السابعة عشرة

بما ان حق الامتلاك من الحقوق المقدسة التي لا تُنقض فلا يجوز نزع الملكية من احد الا اذا اقتضت المصلحة العمومية ذلك اقتضاء صريحاً وفي هذه الحالة يُعطى الذي تُنزع منه ملكيته تعويضاً كافياً »

وكان بيلو يتلو عليهم هذه البنود والناس مصغون اليه كأنَّ على رؤوسهم الطير . ولما اتى على آخر كلمة منها اردفها بقوله

« والآن اسمعوا ايها الاخوة ما قرره المجمع الوطني ذيلاً لهذه المواد . وهو « ان المجمع الوطني رغبة في انشاء دستور فرنسوي قد قرر الغاء جميع النظامات القديمة التي تخدش الحرية والمساواة والحقوق . وبناء عليه لم يبقَ في الهيئة الاجتماعية امتياز ولا رتب ولا وسامات بل كل الناس متساوون فيما بينهم » ثم ان بيلو رفع قبضته وصاح ملء فمه — فلتحيَ الامة

فلما سمع الشعب المجتمع هذا النداء خرجت منه اصوات تحكي قصف الرعد في الغمام . فصاحوا جميعاً فلتحيَ الامة فلتحيَ الامة . ذلك ان الانسان انتبه في جلود هولاء البشر بعد ان رقد فيها ستة قرون قضاها في العبودية والظلم والاستبداد . ذلك ان كل فرد من الافراد الحاضرين شعر بعد كلام بيلو انه صار حرّاً مستقلاً مساوياً في الحقوق والواجبات لكل واحد من بني الانسان . فتعانق الحاضرون وتصافحوا واخذوا ينشدون نشيداً كانت تعزف به الموسيقى حينئذ وهو النشيد الذي يتلى في ساعة الزواج والعياد ومطلعه « اي مكان اهنأ للانسان من وسط عائلته » وفي الحقيقة ان البشر صاروا يرون انفسهم يومئذ عائلة واحدة لا تفصلهم تخوم ولا تقوم بينهم جبال ولا تقسمهم مطامع واوهام

وقد سرى هذا الهياج من ساحة الاحتفال الى اطراف القرية وما جاورها فاشترك فيه

الاهالي بابتهاج وارتياح ٠ وقد اخرجوا افضل خمورهم واحسن خبزهم وجبنهم و بسطوا الموائد في الابواب والشوارع يأكلون طربين مسرور ين احتفالاً بعيد الحرية العظيم

اما بيلو و بيتو وكاترين فجلسوا الى احدى تلك الموائد ياكلون ٠ وكان بيتو قد جعل مجلسه بازاء مجلس كاترين وكان مسرورًا جدًا ٠ اما كاترين فان سرورها قد تبدل غماً بعد ما سمعته في خطبة ابيها ٠ ذلك ان ايزيدور هو من النبلاء الذين الغيت امتيازاتهم فكانت ترى في ذلك الالغاء ظلماً له ولطبقته ٠ ومما كان يزيد كراهتها لذلك افتكارها بان هذا الالغاء بدلاً من ان يساويها بازيدور يبعده عنها لاشتداد البغض بين طبقته وطبقتها

الفصل السادس عشر

﴿ تحت النافذة ﴾

اما بيتو فانه لم يلبث ان اصبح مشغول البال بامر آخر ٠ فانه لما كان يتناول من البوسطه رسائل ايزيدور الى كاترين كان يجد عليها اولاً طابع تورين ٠ وبعد اسبوع رأى عليها طابع ليون ٠ و بعد يومين وجد عليها طابع باريز فتحقق ان ايزيدور خصمه العنيد قد عاد الى باريز ٠ واذا كان ايزيدور قد عاد الى باريز فانه لا بدّ ان يأتي الى قصره في بورصون ليكون قريباً من كاترين

وكان بيتو قد رضي بان يكون وسيطاً بين كاترين وايزيدور انقاذًا للفتاة من مرضها لانه خشي عليها من الموت ٠ ولكنه كان مع ذلك يؤمل ان يبقى ايزيدور بعيدًا عنها ٠ فانه قال في نفسه انني احب كاترين وكاترين تحب ايزيدور ولكنني انا قد فارقت كاترين دون ان امرض حتى الموت خلافاً لكاترين التي كادت تموت لفراق ايزيدور فهي اذًا تحبه اكثر من حبي لها بكثير ٠ وبما انها تحبه الى هذا الحدّ وهو الآن بعيد عنها ولا يرجى ان يعود اليها فما ضرّني اذا برهنت لها على حبي بتخفيف شيء من عذابها ومساعدتها على الشفاء من مرضها

هكذا كان يقول بيتو في مرض كاترين ٠ ولكن لما شفيت هذه الفتاة ورأى بيتو على غلاف رسالة ايزيدور طابع ادارة البوسطة في باريز وتحقق ان ايزيدور سيعود الى كاترين وتعود كاترين الى ايزيدور ثارت في نفسه عوامل الحب القديم والغيرة الشديدة ٠

وخشية من ان ياتي ايزبدور دون ان يدري به بيتو عزم على الذهاب الى غابات بورصون لصيد الارانب فيها ومراقبة حركات كاترين وسكناتها

وبينما كان متجهاً نحو هذه الغابة مرّ بازاء مزرعة الاب بيلو فابصر في احدى النوافذ شخص كاترين وهي تمعن النظر في السهل امامها · فقال في نفسه لا ريب انها تنتظر قدومه · وقد لذعه هذا الفكر في نفسه لذعاً مؤلماً · غير انه دنا من المزرعة وسلم على كاترين فردت له التحية ببشاشة وسالته اين تذهب يامسيو بيتو · فاجاب اني ذاهب لاصطاد لك بعضاً من الارانب يامدموازل كاترين · فقالت كاترين اشكرك يامسيو بيتو على عنايتك انما ارجو منك ان تترك الذهاب مدة اسبوع الى البوسطة لافتقاد الرسائل فان ذلك لا يجدي نفعاً · فتحركت هنا اشجان بيتو فقال لها ولكني اخشى ياسيدتي من عاقبة هذا كله فانني ارى الاب بيلو متغيراً اما رأيتِ شيئاً من ذلك · فتنهدت كاترين وقالت بلى قد شاهدت شيئاً منه · فقال بيتو فانا اخشى على الذي كان السبب في هذا التغيير من ان يصيبه مكروه كما تعلمين · فاصفر وجه كاترين هنا وقالت لماذا تقول « الذي » ولا تقول « التي »· فصاح بيتو كيف ياسيدتي هل انت تخشين مكروهاً

ولكن ما كاد بيتو يتم سؤاله حتى قالت له كاترين اسكت فان ابي قادم· فالتفت بيتو فابصر بيلو قادماً الى المزرعة على جوادٍ ينهب الارض نهباً · ولما صار بيلو قريباً من النافذة تفرس في الشخص الواقف تحتها ليعرفه واذ عرفه صاح به ما جاء بك يابيتو · فقال بيتو جئت ايها الاب بيلو لامد حبائلي للارانب في الغابات القريبة · فقال له وهل تتغدى عندنا · فاجاب بيتو حباً وكرامة فدخل بيلو الى المزرعة ووراءه بيتو ليتغدى عنده

الفصل السابع عشر

﴿ البندقية لقتل الذئب ﴾

ولما جلسوا على مائدة الطعام التفت بيلو الى بيتو وقال ما عهدتك نهماً يا بيتو فلماذا تطلب الارانب في الغابات. فقال بيتو انما اطلبها لمدموازل كاترين ياسيدي لا لي. فقال بيلو وقد رفع راسه. لقد اصبت لانها صارت لاتأكل ولا تشرب انظر الى صحفتها

فالتفت بيتو فراى ان كاترين لم تتناول من صحفتها المملوءة باللحم سوى ملعقتين من المرق

اما كاترين فازدادت اصفراراً وقالت. لقد تناولت يا ابتِ كاساً من اللبن قبل قدومك وهذا هو السبب في عدم طلبي للطعام. فاجاب بيلو: انا لا اسأل عن السبب ولكنني اشير الى امر ثابت. ثم رفع راسه ونظر الى ساحة الدار وقال هذا صاحبنا كلويس. فقال بيتو واي شان له هنا. فقال بيلو اذا كنت تحب الصيد يا بيتو فانا احبه ايضاً

وحينئذ دخل الاب كلويس وفي يده بندقية بيلو المشهورة وقد اصلحها وصب لها ثلاث عشرة رصاصة. وبينما كان قادماً بها الى المزرعة اطلق احدى رصاصاتها فقتل بها ارنباً وابقى الاثنتي عشرة رصاصة الى صاحبها ودفعها اليه. فتناولها بيلو وقال له كيف وجدت بندقيتي. فقال لم اجد بندقية مثلها ولكنك لم تقل لي لاي صيد تتخذها ألصيد الخنزير البري ام سواه فانني صببت الرصاصات صغيرة فهي لا تصلح لقتل الخنازير. فاجاب بيلو كلا انني لا اروم صيد الخنازير بها. فقال بيتو فماذا اذاً تروم ان تتصيد هل تطلب الارانب مثلي. فاجاب كلا. فقال اذاً تريد صيد الطيور. فاجاب بيلو وقد بدأ يعبس كلا. فقال بيتو فاذا كنت لا تروم صيد الخنازير ولا الارانب ولا الطيور فما عساك تروم ان تتصيد. فاجاب بيلو اروم صيد الذئاب

ولو نظر بيتو الى كاترين في هذه الساعة لرأى وجهها مصبوغاً بلون كلون الاموات. اما بيلو فانه استمر في حديثه فقال. في ضواحي المزرعة ذئب علمت بوجوده في العام الماضي ثم ذهب فحسبت انه لا يعود ولكن الرعاة ابلغوني في هذا الاسبوع انه عاد فاعددت هذه البندقية حتى اذا دنا من مزرعتي اصبته بها

وكان بيلو يتكلم وكاترين تزداد اضطراباً واصفراراً فلم يكد ابوها يتم كلامه حتى

نهضت بعنف تطلب الخروج من الغرفة مخافة ان يغمى عليها امام ابيها . فلما رآها بيلو وهي في تلك الحال ازداد تعبيساً . اما بيتو الذي لم يكن قد فهم شيئاً فانه قام وتبعها ليسألها ماذا اصابها . فلما خرجت كاترين من الغرفة وصارت في غرفة بازائها سقطت على الارض خائرة العزم وصارت تبكي وتقول — آه لقد عرف بقدومه وهو ينوي قتله

فلما سمع بيتو هذا الكلام استنار عقله بغتة وهمَّ بالكلام واذا بصوت بيلو يناديه بغضب من باب الغرفة . بيتو بيتو . اي شغل لك هناك . اذا كنت حقيقةً قد جئت لصيد الارانب فعجل بالذهاب والاَّ مضى وقت الصيد . فاجاب بيتو المسكين . حقاً يا مسيو بيلو انني لم اجيء الا لصيد الارانب . فقال بيلو بصوته الجهوري . فماذا تنتظر اذاً . فعلم بيتو انه لا يجد جواباً لهذا السؤال فقام وخرج من المزرعة قاصداً الحرش وهو تارة يسير وتارة يلتفت . اما كاترين فانها نهضت وسارت الى غرفتها واقفلت الباب وراءها . فلما سمع ابوها صوت اقفال الباب قال « اقفليه اقفليه ايتها التعيسة فانني لا انتظر الذئب من هذا المكان »

الفصل الثامن عشر

﴿ بيتو يكمن ﴾

اما بيتو فانه لما صار في الحرش كان يفتكر بكاترين وابيها لا بالارانب . فجلس تحت شجرة ومن هناك اخذ يراقب مزرعة الاب بيلو ويفتكر بالمصيبة القادمة

وكان المساء قد امسى والشمس اخذت تتوارى في الافق فازداد بيتو انتباهاً لنوافذ المزرعة وبابها

واول امر شاهده انفتاح باب المزرعة وخروج الاب كلويس منه . ثم بعد حين ظهر الاب بيلو في نافذة غرفته وفي يده بندقيته وهو يحشوها متانياً كما اوصاه الاب كلويس . وقد شاهد بيتو بيلو دون ان يكون لبيلو ان يشاهده لانه كان مختبئاً باشجار الغابة

وكانت نافذة الاب بيلو فوق نافذة كاترين وكانت كاترين قد فتحت نافذتها وجلست فيها تشرف على السهل والغابة ولكن بيلو لم يكن يستطيع ان يراها الا اذا مدت كاترين راسها من النافذة . وكانت نافذة كاترين في الطبقة السفلية وهي قريبة من الارض

وبعد حين غابت الشمس في كهف المغيب وهبَّ على الغابة نسيم المساء المنعش كانه

يودّع كوكب النهار · فازدادت كاترين تطلعاً الى السهل والتفاتاً الى جوانبه · فادرك بيتو في الحال انها تنتظر قادماً · فقال في نفسه من عسى ان يكون هذا القادم غير الفيكونت ايزيدور دي شارني · وفي الحال تمثل له ان الخطر صار قريباً · فان بيلو بعد ان حشا بندقيته بتأنٍ ردّ عارضتي النافذة الى الداخل وجلس وراءها يراقب الطريق حتى اذا جاء الخصم قتله برصاصة واحدة · فقال بيتو في نفسه ماذا يجب عليّ الآن ان اصنع · فحدثته نفسه ان ينهض و يسرع الى قصر ايزيدور دي شارني في بورصون و يوقفه على هذا الامر · ولكنه لم يلبث ان عدل عن هذا الفكر لان كاترين لم تعهد به اليه فضلاً عن انه لا يبعد اذا علم الفيكونت بالخطر ان يطلبه و يقتحمه دون ان يُبالي فيكون كالباحث عن حتفه بظلفه

و بينما كان بيتو مفكرًا في هذه الامور وكله عينان شاخصتان بنافذة الاب بيلو و بنافذة كاترين كان الليل قد ارخي سدوله ودخلت الطبيعة في سبات الليل و راحة الظلام

ثم تكاثفت ستائر الليل و بعد حين راى بيتو من مكانه شبحاً يلوح في نافذة كاترين · وكان بيتو قد تعود النظر في الظلام لانه الف السير فيه لصيد الارانب في الاحراش فحدق جيدًا في النافذة فابصر ان الشبح شبح شخص نازل منها لا شبح شخص صاعد اليها · فتحقق في الحال ان كاترين عزمت على الذهاب بنفسها الى بورصون لانذار ايزيدور بالخطر الذي يتهدد حياته اذا دنا من المزرعة · فخفق عند ذلك قلب بيتو خفقاناً شديدًا · ومما زاد خفقانه انه علم ان كاترين اذا خطت خطوتين في الطريق فان بيلو الذي كان يراقب الطريق من وراء النافذة لا بدّ ان يراها

اما كاترين فانها لما صارت على الارض وقفت وترددت بين ان تسير في السهل في اقرب الطرق الى بورصون و بين ان تسير على موازاة جدران المزرعة وتعطف بعد ذلك على بورصون خوفاً من ان يراها احد منها · فسرّ بيتو لما شعر بانها افتكرت بالمسير على موازاة الجدران لان ذلك يخفيها عن عيني ابيها ولكنه لم يلبث ان رآها اخذت تسير محنية كمن يسترق الخطى في السهل امام المزرعة فهاله سيرها هذا لانه علم ما وراءه

ذلك ان كاترين لم تصر تجاه النافذة التي كان ابوها وراءها حتى انفتحت هذه النافذة بتأنٍ و برز منها راس بيلو · فتارد م بيتو لانه علم ان بيلو قد راى شبحها · و بعد هنيهة انسحب الراس ولم تمضِ دقيقة على انسحابه حتى فُتح باب المزرعة وخرج منه بيلو وفي يده بندقيته · ولكنه بدلاً من ان يسير في اثر ابنته ثار في طريق اخرى اخصر من طريقها

وهي تؤدي الى منعطف الطريق المؤدية الى بورصون ليقطع الطريق على ابنته فيها

فعلم بيتو حينئذٍ انه يجب عليه ان لا يُضيع ثانية واحدة · فنهض كالبرق الخاطف واطلق ساقيه للريح ليلاقي كاترين قبل وصولها الى منعطف الطريق حيث يكمن لها ابوها و يوقفها على الخطر الذي امامها · فلم تمضِ عليه بضع دقائق راكضاً حتى قارب كاترين فكمن لها بين الاشجار لكي لا يذعرها

و بعد هنيهة وصلت كاترين الى مكمنه وهي تركض بقدم خفيفة وتلهث من التعب والخوف · فنهض بيتو من مكانه و برز لها قائلاً انا بيتو ·وقد قصد بذلك، ان تعرفه حين بروزه لئلا يخيفها ظهوره على حين بغتة · ومع ذلك فان الفتاة خافت خوفاً شديداً حين رؤيتها شبحاً امامها وصرخت صوتاً خفيفاً · ثم انها لما عرفته قالت له

— هذا انت يامسيو بيتو

فاجاب بيتو ارجعي ارجعي يامدموازل كاترين فان اباك علم بخروجك فسار يطلبك

فقالت كاترين بصوت ملئه الياس والبكاء · ومن « يخبره » بما جرى فانني اخشى قدومه وهلاكه

فقال بيتو كوني مستريحة البال ياسيدتي فانني اكمن لايزيدور في هذه الجهات ومتى رايته قادماً الى المزرعة اطلعته على الامر · فعودي في الحال الى غرفتك

فمدت كاترين يدها الى بيتو وقالت له شكرًا شكرًا لك يا بيتو فانك تنقذ نفسين في آن واحد

فاجاب بيتو كل شيء هين في سبيلك يامدموازل كاترين لانني انا احبك ايضاً

ثم ان كاترين عادت ادراجها الى غرفتها فدخلت اليها من النافذة التي خرجت منها واغلقت النافذة وراءها · اما بيتو فانه قصد اشجارًا قديمة من الصفصاف كانت قائمة على مسافة عشرين خطوة من المزرعة وجلس في جوف احدها ينتظر في سكون ذلك الليل قدوم الفيكوت ايزيدور دي شارني ليحذره من الخطر الذي يتهدد حياته

الفصل التاسع عشر

﴿ انتظار الذئب ﴾

ولكن لم يستقر بيتو في جوف جذع الصفصافة القديمة حتى سمع وقع اقدام من جهة الحرش فاصغى جيدًا فوجدها ثقيلة فعلم ان اقدام الشاب ايزيدور اخف منها · وبعد حين دنا القادم من جهة شجر الصفصاف فتبينه بيتو فاذا به الاب بيلو وبندقيته على كتفه وقد عاد من الحرش لانه لم يجد فيه احدًا فحسب ان عينيه قد خدعتاه وان الشبح الذي رآه لم يكن شيئًا

غير ان بيتو لم يلبث ان تحقق ان بيلو يقصد شجر الصفصاف فخاف ان يكون قد قصد الاختباء بها ليكمن لايزيدور · وقد كان خوف بيتو في محله · ولذلك لم يدنُ بيلو من شجر الصفصاف حتى خرج بيتو متانيًا من جوف الصفصافة وهبط الى حفرة كانت تحت جزع الشجرة وجلس فيها

وكانت الريح شديدة العصف فلم يسمع بيلو لبيتو حركة وكان بيلو يعرف تلك الاشجار فقصد اضخمها وهي التي كان بيتو جالسًا في جذعها وجلس في نفس المكان الذي كان بيتو جالسًا فيه وقد جعل بندقيته بين يديه

فبناء عليه اصبح بيلو في نقر جذع الشجرة فوق وبيتو في الحفرة التي تحت

غير ان بيتو كان يرى بيلو ولكن بيلو لم يكن يرى بيتو ولا درى بوجوده هناك

فاخذ بيتو يتامل في اسطوانة البندقية المفضضة التي كانت تسطع في جوف الليل ويدعو في نفسه ان لا يحضر ايزيدور لانه اذا حضر لم يقدر على انذاره بالخطر فيهلك لا محالة

وحينئذ تظن كاترين ان بيتو قد خانها وتعمد اهمال انذار ايزيدور وهذا الظنُّ يدمي قلب بيتو الكريم ويقصف ظهره قصفًا

وبينما كان بيتو يفكر في مثل ذلك واذا به يسمع وقع حوافر خيل على الطريق الموصلة الى المزرعة فالتفت فوقه فوجد ان بيلو قد هيأ بندقيته وقد اخذ ينحني ويمد بصره الى الطريق ليتحقق القادم

وكان الجواد القادم ينهب الارض نهبًا وقد اصاب حافره بلاطة في طريقه فثار منها الشرر لشدة الصدمة · وما زال به الفارس حتى وصل الى شجرة قريبة من المزرعة فترجل

عنه وربطه بها ثم اتجه نحو المزرعة

فاقعى حينئذ بيلو كما يقعي الليث قبل الوثوب ووجه فم بندقيته نحو الشخص ثم فتح القوس ليوري الزناد . فسمع بيتو صوت فتح القوس فوق راسه فاخذ يعض يده من اليأس ويشد شعره من الخوف على حياة ايزيدور . اما بيلو فانه لم يلبث ان اعاد البندقية عن كتفه لانه راى ان الشخص لا يزال بعيداً وخشي ان يخطئه فلا يصيبه

وكان ذلك الشخص وهو ايزيدور نفسه قد اخذ يدنو من نافذة كاترين . فلما توسط الطريق اليها سدد بيلو بندقيته اليه مرة ثانية وبيتو ناظر اليه من تحته وكانه على نار حامية . ولكن بيلو اعاد البندقية هذه المرة ايضاً لان المجال كان بعيداً ايضاً

وبعد حين وصل ايزيدور الى نافذة كاترين وصار المجال قريباً فسدد بيلو بندقيته اليه بغضب بالغ مبلغه . فقرع حينئذ ايزيدور على النافذة ثلاث مرات قرعاً معروفاً عند كاترين . فما اتم ايزيدور القرعة الثالثة حتى شد بيلو يده على القوس واطلق نار البندقية

فنظر بيتو من فوق راسه ان البندقية قد اطلقت . ولكنه لم يسمع من صوت الطلق سوى وقع الزناد يتلوه الشرر فتنفس الصعداء وعلم ان الطلق لم يخرج من البندقية

وكانت نافذة كاترين قد انفتحت وظهرت كاترين فيها تمد ذراعيها الى ايزيدور . فلما راى ايزيدور شرر النار في الصنفاقة وسمع صوت قوس البندقية علم بما كان مخبوءاً فهم بالهجوم على الصنفاقة لاقتحام نار صاحبها . ولكن كاترين تعلقت به وصاحت في اذنه . هذا ابي هذا ابي . فانجُ بنفسك . ثم انها اخذت تجذبه من النافذة الى الغرفة

وكان بيلو قد زاد البارود من ثقب البندقية من جهة القوس ليحدث الاتصال بينه وبين بارود الطلق . ثم انه سدد البندقية مرة ثانية ورام اطلاقها . ولكنه راى ان كاترين وايزيدور اصبحا في النافذة مختلطين تقريباً فخشي اذا اطلق على ايزيدور ان تُصاب كاترين . ولذلك اعاد بندقيته وهو يعض شفتيه من الحنق والغيظ

وكانت كاترين في اثناء ذلك قد جذبت ايزيدور الى داخل الغرفة . فلما راى بيلو ذلك نزل من مكانه وسار ركضاً الى الجانب الثاني من المزرعة

اما صاحبنا بيتو فلما راى ذلك علم ان بيلو يقصد الجانب الثاني ليكمن لايزيدور فيه لعلمه ان كاترين ستدعه يفر منه . فوثب في الحال من مكانه وثبة الظبي النافر واطلق ساقيه للريح . وما زال راكضاً حتى وصل الى نافذة كاترين . فوثب منها الى داخل الغرفة

فلم يجد فيها احداً فسار ركضاً الى الدار ومنها قصد جدار المزرعة الثاني فوجد ايزيدور يتسلق هذا الجدار وكاترين تودعه . فصاح به بيتو اسرع اسرع يامسيو ايزيدور ولا تضع الوقت . فوثب ايزيدور عن الجدار واختفى في الظلام

اما كاترين فانها كادت تسقط على الارض من شدة الخوف والتعب وبينما هي في هذه الحالة واذا بها تسمع صهيل جواد في الخارج فقالت هذا جواده . وبعد برهة سمعت صوت وقع حوافر الجواد على الطريق وهو يركض باشد قوته . فقالت لقد سار ونجا . ولكنها لم تفه بهذه الكلمة حتى دوى في الفضاء صوت طلق ناري وتلاه طلق آخر . فكادت كاترين تجنّ لعلمها ان اباها قد اطلق النار على ايزيدور

اما بيتو فهدأ روعها وقال لها اسمعي لنرى اذا كان الجواد قد وقف او ظل سائراً . واذ اصغيا سمعا وقع حوافر الجواد من بعيد فعلما ان فارسه قد نجا عليه . فتنفس كلاهما الصعداء . وقال بيتو . لا بدّ من نجاته فان اليد لا تصيب في الليل كما تصيب في النهار فضلاً عن انها لا بدّ ان ترتجف اذا كانت تطلق الموت على انسان

وكانت كاترين قد سقطت على الارض من الضعف فانحنى بيتو وهم بانهاضها وهو يقول هلمي ياسيدتي فان اباك لا بد ان ياتي

فرفعت الفتاة راسها وسالته . الى اين

فقال الى غرفتك

فقالت لا . لا اذهب الى غرفتي لانني اريد ان اقطع كل علاقة بيني وبين الرجل الذي رام قتل .... حبيبي

فقال بيتو ماذا تقولين

فقالت كاترين بغضب اقول انني اروم الآن الخروج من المزرعة فهل لديك مكان لاختبىء به يامسيو بيتو

فاجاب بيتو وهو يحك راسه نعم اخبئك اذا اردتِ ولكن ماذا يقول الاب بيلو . فقالت الفتاة بغضب ايضاً قلت لك اروم قطع كل علاقة لي بيني وبين الرجل الذي رام قتله ..

وكان الغضب يعمي رشدها ويثير في نفسها افكاراً غريبة تقرب من الجنون . وربما كان ذلك ناشئاً ايضاً عن خجلها من مشاهدة ابيها بعد ما جرى

ولما رات الفتاة ان بيتو متردد قالت له . ما لك لا تجيبني . انني الآن مغادرة هذا المكان فهل تتبعني ام لا . فقال بيتو كيف لا اتبعك يامدموازل كاترين . قالت فهلم

بنا اذًا ثم خرجت واياه . ولم يرهما احد في خروجها ولم يعرف احد المكان الذي اختبأت به كاترين على يد بيتو الا الله وحده

الفصل العشرون

﴿ بعد الزوبعة ﴾

وفي صباح اليوم الثاني سكنت الزوبعة وهمدت الريح و برزت الشمس من وراء الغيوم الكثيفة فقام عمال المزرعة الى اعمالهم كأن لم يكن شيء مما جرى . غير ان بعضهم قالوا وهم خارجون : ان الكلاب نبحت كثيرًا في هذا الليل وقد سُمع طلقان ناريان في منتصف الليل

هذا كل ما ظهر لعمال المزرعة من ذلك الاضطراب الشديد الذي حدث في المزرعة في تلك الليلة . واما بيلو فانه لم يرقد له جفن في ذلك الليل . ولما اشرق الفجر قام الى المكان الذي كان الجواد مربوطًا فيه فوجد خيطًا من الدماء ممدودًا من ذلك المكان الى مسافة بعيدة . فتنهد وثارت نفسه كلها لرؤيته دم ذلك الرجل الذي يعبث بشرفه . ثم عاد الى المزرعة ليرى ابنته و يناقشها الحساب على هذه الدنايا . فوقف امام غرفتها وصاح بغضب : كاترين . فلم يجبه احد . فصاح مرة اخرى : كاترين كاترين . فلم يجبه احدٌ ايضًا . فارتاب بيلو حينئذ في ذهابها من المزرعة وللحال خمدت ثورة نفسه وتغير صوته من الخشونة الى الرقة . فنادى بصوت لطيف . كاترين كاترين . فلم يجبه احد ايضًا

فدخل حينئذ بقدم مرتجفة الى غرفة كاترين فوجدها خالية خاوية فاضطربت نفس هذا الرجل الذي لا تضطرب له نفس وكاد يبكي لو لم يكن مقدودًا من جلمد . فتجلد وخرج الى دار المزرعة وعلى وجهه علامات الغيظ واليأس . فوجد فيها زوجته مدام بيلو وكانت تجهل سبب غضبه فسالته متلاطفة اين كاترين فانني لا اراها في هذا الصباح . فغص بيلو بريقه وكاد ينصدع صدره ولكنه تجلد ايضًا واجاب امراته بهدوء . ان كاترين سافرت لتبديل الهواء عند عمتها . فحزنت الام لفراق ابنتها ولا سيما لان فراقها كان فجائيًا وسالته . وهل تطول مدة اقامتها هناك . فاجاب بيلو بغضب لا اعلم . فسارت الام الى مطبخها وجلست تبكي على فراق ابنتها . اما بيلو فانه قصد المائدة لياكل فلم يقدر ان يبتلع لقمة واحدة فتناول زجاجة من نبيذ بورغونيا وافرغها في جوفه دفعة واحدة . ثم طلب

جواده فركبه وهام على وجهه في تلك السهول والاحراش لعله يتعزى عن فراق ابنته او يجد اثرًا لها

واما بيتو فان الصباح اصبح عليه وهو جالس في غرفته في قرية هرامونت ولكن بعضاً من سكان هذه القرية رابهم منه امر في تلك الليلة. فان بعضهم روى انه شاهده عائدًا الى القرية في الساعة الرابعة بعد منتصف الليل. وبعضهم روى انه كان في الساعة الثانية عند صخرة كلويس على مسافة ستة اميال من قرية هرامونت فشاهد هنالك بيتو سائرًا وهو يحمل امرأة بين يديه . ولذلك كان السكان في ذلك الصباح يتكلمون عن بيتو ويسالون عنه

وكان بيتو لم يذق الكرى في تلك الليلة ايضاً . وقد شاركه في هذا الامر الدكتور رينال الذي شهدناه يطبب كاترين . فانه ما انقضت ساعة بعد منتصف الليل حتى قُرع جرس منزله في فيلله كوتريه قرعاً شديدًا ففتح الباب فوجد خادم الفيكونت ايزيدور دي شارني يدعوه ان يسرع الى منزل الفيكونت وياخذ معه آلة الجراحة . وكان الخادم قد جاء بجواد للدكتور ليسرع عليه الى سيده . فركب الدكتور الجواد وسار عليه الى منزل شارني في بورصون فوجد الفيكونت مصاباً بجرحين واحد في جنبه وواحد في كتفه والاول اشد خطرًا من الثاني . فان رصاصة ابي كاترين كانت قد خرقت الجلد في الجنب وخرجت من مكان آخر دون ان تصيب عضوًا رئيساً واما رصاصة الكتف فانها لحست الجلد لحساً . فضمد الدكتور الجرحين وبشر المصاب بالسلامة . فمد يده ايزيدور وناوله ٢٥ ذهباً وقال له خذ هذا المبلغ ايها الدكتور ولكن لا تتكلم عن جرحي لاحد . فاجابه هذا الدكتور الفاضل : ان اجرة زيارتي لا تتجاوز خمسة فرنكات فاذا رمت مني السكوت فلا تدفع لي اكثر منها

ثم مد الدكتور يده ولم ياخذ من تلك القيمة سوى خمسة فرنكات . ولكنه قال له انه سيعود الى زيارته مرتين افتقادًا لجرحيه

. . . .

واما بيلو فانه بعد ان جال قليلاً بين السهول والغابات نزل عن جواده وجلس تحت شجرة هناك واخذ يفتكر . وبماذا كان يفتكر ؟ كان يفتكر بالليلة البارحة وما حدث فيها من الاهوال

وكان هواء الغابة قد انعش نفسه فعاد اليه صوابه . فصار يقول في نفسه وهو جالس

يفتكر « ماتت كاترين ماتت كاترين . لقد اجترأت على الخروج من المزرعة ومفارقة البيت فانا اعتبر بعد الآن انها ماتت ولم يبقَ لها وجود . وكم كنتُ افضل ان تموت على ان تهين عيلتها ونفسها هذه الاهانة

لقد اخطأتُ في تركي المزرعة وانابتها منابي مدة غيابي في باريز فان ذلك اطلق لها عنان الحرية وجعلها في امن من كل مراقبة . ولكن كيف العمل فان امها غير قادرة على ادارة المزرعة مثلها . فياتعاسة منزل تكون فيه الام جاهلة بسيطة والابنة نبيهة طائشة

ولكن هل الذنب ذنب كاترين ام ذنب ذلك اللئيم ... لا لا .. الذنب ذنبهما كليهما .. لانهما كلاهما قد اشتركا في الشر . ولكن ذنبه افظع من ذنبها ولذلك رمت غسل ذنبه بدمائه ..

ثم اطرق بيلوهنيهة وجعل يفتكر ايضاً . فراى وهو يفتكر انه قد اخطأ في مطاردة ايزيدور لقتله .

هل ان ذلك الفتى منفرد بين الناس بالاعتداء على بنات الناس . كلا فان ابناء النبلاء لا همَّ لهم غير مطاردة بنات الشعب لاقتناصهن . واذا كان هؤلاء الابناء لايحبون بنات الشعب وآباؤهم لا يتزلفون الى الملك طلباً لماله اي مال الشعب ايضاً فماذا يصنعون . واي عمل يعملون . فالشر الذي اصاب بيلو اذاً ناشيء عن طبقة بامرها لا عن رجل واحد . ثم ذكر بيلو الاحتفال باعلان حقوق الانسان ورفض الاب فورنيه الصلاة للشعب فاخذ يقول في نفسه وهو جالس تحت الشجرة في الحرش والريح تعبث بشعره وثيابه :

« هذا هو مفتاح الثورة التي قام الشعب اليها . وكانني قد ذقت الآن كل خلها . فان الملك يبتز الضرائب من الشعب لينفقها على حروبه وملاذه ومطامعه . والاكليروس يدجل على الشعب ليبقيه في الطاعة للملك . فكانه راع يمسك البقرة جيداً ليتمكن حالبها من حلبها جيداً . وتحت الملك والاكليروس طبقة النبلاء وهولاء يشاركون الملك في الاموال التي يبتزها من الشعب وفي مقابلة ذلك يسكتون عنه ويساعدونه في اعماله . وابناء هولاء النبلاء ينصرفون الى اقتناص بنات الشعب غير حاسبين لله وللناس حساباً . وغير عابئين بشرف او نخوة او شهامة .

فالشعب اذاً هو الحجر الكبير القائم عليه بناء كل مملكة . الشعب هو البقرة الحلوب التي يتمتع بخيراتها الحكام والنبلاء والاكليروس دون ان يذكروا فضلها . فبدلاً من ان

نقتل فتىً غرّاً لانه تطاول على الاعراض يجب ان نهب هبة واحدة لتقييد الملك بالدستور وجعل نبلاءه وابناءهم خداماً للامة لا اسيادها · وايقاف الاكليروس عند حده حتى يترك التدجيل والخزعبلات ولا يعلم البشر الا الفضائل الدينيــة الحقيقية التي ترفع نفوس الشعب وترقي شؤونه

هكذا تكلم بيلو بعد ذلك الجرح الذي شطر قلبه · وقد راى ان هذه الافكار توجب عودته الى باريز للسعي والعمل فعزم على السفر اليهـا لينتقم لنفسه ولاخوانه ابنـاء الشعب عن ذلك الذل الذي تمكن نيره من عنق الشعب مدة قرون عديدة

فهل كـان بيلو مخطئاً ام مصيباً بهذه الافكار ؟ تلك مسالة جديرة بكل بحث واعتبار

الفصل الواحد والعشرون

﴿ يمين الامانة للدستور ﴾

(التحالف في ساحة مارس)

ذكرنا من قبل ما كان من اتحاد الولايات الفرنسوية بعد تحالفها ونزيد الآن ان شعوب اوربا راقها هذا الاتحاد والتحالف . وذلك ان اوربا نفسها كانت ولا تزال تشعر بانه سيجيء عليها يوم تكون فيه شعوبها كلها متحدة متحالفة كما كانت الامم اليونانية . ولكن متى يجيء هذا اليوم ؟ وفي اي قرن يكون ؟ الله اعلم

غير ان الولايات الفرنسوية لم تكن مكتفية بذلك التحالف النظري بل كانت تروم تحالفاً فعلياً ولذلك بعثت المدن الفرنسوية تطلب من باريز ان تكون على استعداد لقبول زيارة ابنائها احتفالاً بالاتحاد الفرنسوي . فلما درى بذلك الملك واعضاء المجمع الوطني اوجسوا خيفة منه . اما ميرابو فانه اقنع الملك بفائدته لان انصار الملكية في الولايات اكثر عدداً منهم في باريز

وبناء عليه تقرر ان يقام في ١٤ يوليو من عام ١٧٩٠ احتفال عظيم في ساحة مارس تأييداً لذلك التحالف

فلما بلغ هذا الامر الى الولايات قام سكانها على ساق وقدم وزحفوا الى باريز الوفا الوفا ومئات الوف . فكان منظرهم على الطريق في غاية البهجة . وقد ساروا من بلادهم الى باريز دون ان يحسبوا حساب اكلهم وشربهم اعتماداً على حسن ضيافة المدن التي ينزلون فيها . وفي الحقيقة ان سكان هذه المدن كانوا يهبونهم كل ما كانوا بحاجة اليه . ولما وصلوا الى باريز غصت العاصمة بهم فاهتمت الحكومة بتدبير اماكن يبيتون فيها واخذ الباريزيون ينزلون اليهم من النوافذ والسطوح طعاماً وشراباً . فكأن فرنسا كلها زحفت يومئذ الى باريز لتحضر حفلة التحالف وتقسم يمين الامانة للدستور في حضرة السلطة الشرعية

وكانت تلك الجماهير في زحفها الى باريز تنشد نشيداً لطيفاً . وهذا النشيد لا علاقة له بالنشيد الدموي الذي صار الشعب ينشده في سنة ١٧٩٣ فانه في هذا العام كان ينشد

سنرى سنرى سنرى كل الاشراف على المصباح سنرى سنرى سنرى
شنق الاشراف بلا مرا

ولكنه اليوم كان ينشد

الشعب ينادي بهذا اليوم سنرى سنرى سنرى بحسب قواعد الانجيل
سنرى سنرى سنرى كل شيء يتم بقوة الشارعين فالذي يرفع نفسه يصبح وضيعاً
والذي يضع نفسه يصبح رفيعاً

وكان هذا النشيد اللطيف بمثابة صوت خارج يومئذ من جميع افواه الامة الفرنسوية ولما وصل هؤلاء السكان الى باريز كانت نفوسهم متقدة بنار الحب للدستور وللملك. فكانوا اذا قابلوا رئيس المجمع الوطني كشفوا رؤوسهم احتراماً وصاحوا « فلتحيَ الامة » واذا قابلوا الملك جثوا باحترام امامه وصاحوا « فليحيَ الملك والملكة »

ولكن الملك والملكة لم يفهما هذا الاحترام القلبي فاجابا عليه بفتور ولو احسنا استخدامه لاستفادا منه فوائد عظيمة . ومن اين لهما ان يفهماه ويحسنا استخدامه وهما لا فكر لهما غير الفرار من باريز

ولما اقترب يوم ١٤ يوليو ظهر ان العملة لايستطيعون اكمال المعدات في ساحة مارس قبل ذلك اليوم فخيف من تاخير ميعاد الحفلة . اما الشعب فلما بلغه امر التاخير انبرى منه مائة الف رجل وذهبوا لمساعدة الحفارين والممهدين في الساحة . فاضطرت ادارة العمل الى تسليمهم العمل في الليل وتركت لعملتها العمل في النهار فلم يات يوم ١٤ يوليو حتى كانت الساحة تامة المعدات

وكانوا قد اقاموا فيها مذبحاً عظيماً يسمونه مذبح الوطن للاحتفال بقداس فيه ونصبوا فيه ثلاثة كراسي للملك والملكة ورئيس المجمع الوطني . ولما حان وقت الاحتفال تزاحم الناس حول الساحة فامتلأت بهم وكانوا يبلغون الوفاً كثيرة وهم يهتفون فلتحيَ الامة . فليحيَ الملك . فليحيَ الدستور

وبعد حين حضر الملك وانتظم عقد الاجتماع . وكان الزحام عظيماً . فتقدم مائتا كاهن من المذبح وهم لابسون ثياباً بيضاء كالثلج وفي وسطهم اسقف اوتين . وكانت السماء ملبدة بالغيوم والزوبعة تزئر زئيراً شديداً . فلما دنا ذلك الاسقف من المذبح اشتد زئيرها كأن السماء ارادت بذلك اظهار غضبها مقدماً على هذا الاسقف الذي يخون ضميره ومبدأه مرات عديدة

وكان في جملة الكهنة الذين احتفلوا بالقداس على هذا المذبح المسيو تاليران الذي اشتهر بعدئذٍ في السياسة

وبعد القداس جاءت نوبة اليمين . فنهض لافاييت قائد الجيش العام وجرد حسامه ثم صعد درجات المذبح ووضع راس سيفه على الانجيل وقال بصوت جهوري والناس مصغون كأنّ على رؤوسهم الطير

« نقسم اننا نكون امناء للامة والدستور والملك دائماً وان نحفظ بكل قوانا الدستور الذي وضعه المجمع الوطني ووافق الملك عليه . وان نحمي طبقاً للشرائع ارواح الناس واملاكهم ومبادلة الحبوب في داخل المملكة وجباية اموال الحكومة على انواعها . وان نبقى متحدين بباقي الفرنسويين برباط الاخاء الذي لا يُقطع »

ولما اتمّ لافاييت هذا القسم اطلق مائة طلق ناري من مدافع الحصون المحيطة بباريز كانها انذار للعالم باتحاد فرنسا بازاء اوربا كلها ورغبتها في ان تكون حرة تحت قبة السماء

اما الشعب فانه هتف للامة هتافاً طبق السماء ولكنه لما صعد رئيس المجمع الوطني الى المذبح ليحلف اليمين سكت واصغى اليه

فحلف رئيس المجمع اليمين الآتية

« اقسم بانني ابقى اميناً للامة والدستور والملك وبان احفظ بكل قواي الدستور الذي سنه المجمع الوطني ووافق الملك عليه »

ثم لما فرغ من القسم دوت اصوات المدافع مرة ثانية كما دوت اصواتها بعد يمين لافاييت . وبعد ذلك اشرأبت الاعناق لسماع يمين الملك

فنهض الملك ليحلف يمنه . وكأنّ السماء رامت مشاهدة ذلك المشهد ساعتئذ ولذلك تفرقت الغيوم وبرزت الشمس من وراءها

فياذا الجلال ان هذه الشمس التي برزت هي عين الله تراك واذنه تسمعك . فاحلف يمينك

ولكن ليتك ياذا الجلال لم تحلف هذه اليمين التي حلفتها وانتَ تنوي الحنث بها وهذه اليمين هي

« انا ملك فرنسا اقسم بانني استخدم كل القوة التي خصني بها دستور المملكة لحفظ هذا الدستور الذي سنه المجمع الوطني ووافقتُ عليه . وان انفذ الشرائع الموضوعة »

ولكن الملك لم يحلف هذه اليمين على المذبح كما حلفها لافاييت ورئيس المجمع ولكنه حلفها امام الناس وهو واقف . ولا عجب فانه حلفها وهو يضمر الحنث بها كما تقدم

ولما اتى الملك على يمينه دوت اصوات المدافع ايضاً تطبق السماء وتنتقل امواجها من جهة الى جهة كانها تنادي العالم وتنذر ملوك اوربا بقولها « احذروا فان فرنسا قامت على قدميها . احذروا فانها تريد ان تكون حرة . وهي كذلك القنصل الروماني الذي كان يحمل السلم والحرب بين برديه . فاذا شاء كانت الحرب واذا شاء كان السلام »

الفصل الثاني والعشرون

﴿ ماذا جرى لكاترين ﴾

لا بد ان يكون القارئ قد اشتاق الى معرفة ما جرى لكاترين بعد خروجها من المزرعة . ورغبة في مرضاته نعود الى كاترين فنقول ان بيتو نقلها الى حجرة قريبة من حجر الاب كلويس الذي تقدم ذكره غير مرة في سياق الكلام . ولما ابلغ بيتو الى الفيكونت ايزيدور خبر وجودها هنالك خف اليها مع ان جرحيه لم يكونا قد اندملا بعد فكان لالتقائهما مشهد مؤثر . وقد بكت كاترين وطرحت نفسها بين ذراعيه فجرحه بكاؤها فعانقها وقبلها وسالها لماذا تبكين . فاجابت كاترين ابكي لانني خرجت من بيت ابي فقال ايزيدور . ولكنك لم تخرجي منه الا الى بيت زوجك ياكاترين . فقبلته كاترين وقالت ما اشرف عواطفك فانك تذكرني الآن احب شيء الي . فقال ايزيدور نعم اذكرك ذلك لئلا يشق عليك الوجود هنا . ومع ذلك فليس العهد بزواجنا الاول ببعيد . اتذكرين يا كاترين تلك الليلة المظلمة التي جئت بها الى قصر بورصون فوجدتني في انتظارك مع كاهن لعقد الزواج . اتذكرين ما قاله لك الكاهن بعد عقد الزواج وكيف اننا بكينا معاً لكلامه المؤثر

فقالت كاترين ليتني اطعت ابي على امر هذا الزواج فانه ربما كان خفف غضبه

فقال ايزيدور لا باس بغضب ابيك فانه كالزوبعة تثور حيناً ثم تسكن فاتركي الافتكار فيه الآن وسادبر هذا الشان معه

وكان ايزيدور يزور كاترين حيناً بعد حين في هذه الحجرة لانها رفضت الذهاب معه الى بيتها في بورصون لعدم اطلاع اهله واهلها على امر الزواج . وبعد انقضاء مدة رام ايزيدور السفر الى باريز لاشغال خاصة فزين لها ان ترافقه الى باريز لتعيش فيها في مكان

مجهول عيشة راضية فرضخت كاترين لهذا الامر وركبت مع ايزيدور مركبة وسارت الى باريز . وبينما كانت مركبتها في الطريق كانت جماهير الشعب تزحف الى باريز لحضور الاحتفال في ساحة مارس كما تقدم فاطلت كاترين من مركبتها لمشاهدة تلك الجموع الكثيرة . فكان اول شخص وقع عليه نظرها اباها بيلو وصديقها بيتو قادمين في جملة القادمين لينوبا عن قريتيهما

فصرخت كاترين صوتاً خافتاً وادخلت راسها الى المركبة في الحال . ومن حسن حظها ان بيلو وبيتو لم ينظراها

وظلت المركبة سائرة تتقدمها الجموع وتتلوها حتى وصلت الى باريز . فاستاجر ايزيدور لزوجته الشرعيـة كاترين منزلاً منفرداً . اما بيلو وبيتو فانهما حضرا حفلة ساحة مارس ولكن بيلو كان مشغول الافكار عنها بما كان في نفسه من الهواجس الاليمة

الفصل الثالث والعشرون

﴿ بيلو والرجل المجهول ﴾

وفي ذات يوم كان بيلو جالساً في احدى القهاوي وسحب الهم والغم بادية في جبينه وبازائه بيتو يحادثه ليسليه فلا يرد عليه بيلو الا من رؤوس شفتيه واذا برجل قد دنا من الاثنين وقال سلام لكم . فانتبه بيلو اليه فلم يعرفه فقال الرجل المجهول . انكما لم تعرفاني ايها الاخوة . ثم اشار اشارة ماسونيـة فتحرك حينئذ بيلو وبيتو وجاوباه على هذه الاشارة بمثلها فجلس الرجل معهما . ثم قال . انا اعرفكما وان لم تعرفاني انت ايها الاخ صاحب مزرعة كبيرة وتدعى بيلو وانت ايها الفتى فائد في هرامونت وتدعى بيتو . فاظهر بيلو وبيتو الاستغراب . فقال الرجل المجهول . لا تستغربا فانني اعرف كل شيء في العالم . ولكن فلندع الآن هذا الامر وقل لي مالك يابيلو حزين النفس كئيباً هل ذلك لانك اول رجل فتح الباستيل ولم يكافئك الناس على عملك . فقال بيلو انا لا اعبـا بالمكافاة فقال الرجل فهل ذلك لان مزروعاتك قد اجدبت في هذا العام فقلّ دخلك . فقال بيلو انا غني ولا تهمني الخسارة . فقال الرجل فهل ذلك اذاً لان ابنتك كاترين ..

فحينئذ قطع بيلو كلامه وقال الزم الصمت ياسيدي اذا كنت تعلم

فقال الرجل نعم اعلم نعم اعلم . ولكن اين هي الآن

فقال بيلو لقد ماتت

فهم بيتو بان يصيح بانها لم تمت وان يخبر بيلو بانه يراها في كل يوم في منزل لها في باريز ولكن بيلو اوقف الكلام بفمه باشارة واحدة وقال بل ماتت ماتت

وقد عنى بذلك ان كاترين اذا كانت موجودة في قيد الحياة للناس فهي في نظره قد ماتت ولم يبق لها وجود

فقال الرجل . فلماذا اذًا طاردت ببندقيتك ذلك الفتى لقتله

فاجفل بيلو لهذا الكلام وقال من اين لك هذا الخبر . فقال الرجل لا تسلني عن ذلك ولكن اجبني . هل ترى من الحكمة ان تعاقب فردًا واحدًا على شر جناه او تستاصل الشر من اصله

فقال بيلو انك تقول لي الآن ما قاله الدكتور جيلبار . فانني لما اطلعته على هذه هذه القصة قال لي « ان مائة الف اب في فرنسا قد وقعوا في ما وقعتُ فيه واذا كان ابناء النبلاء لا يخطفون بنات الشعب وآباؤهم لا ياكلون امواله فماذا يصنعون واي شان يكون لهم غير هذا الشان »

فضحك الرجل المجهول وقال له . وهل جيلبار قال لك هذا

فقال بيلو نعم وهل تعرفه . فاجاب الرجل المجهول قلت لك لا تسالني شيئًا ولكن اجبني . هل تريد الانتقام من فردٍ او من الطبقة التي هي اصل الشر

فتامل بيلو قليلاً ثم قال بل من اصل الشر . فقال الرجل المجهول اتبعني اذًا لاحدثك قليلاً وبعد برهة تعود الى رفيقك

وبعد برهة عاد بيلو من حديث الرجل المجهول وعلى وجهه لوائح القوة والنشاط بعد لوائح الضعف والحزن وقال لبيتو عد انت الى المزرعة اما انا فانني باقٍ في باريز

الفصل الرابع والعشرون

﴿ المحافل الماسونية في الثورة ﴾

(طريقة ارتقاء الماسوني الى درجة مستنير)

و بعد انقضاء ثمانية ايام على هذا الحادث كان بيلو سائرًا بعد هبوط الظلام نحو شارع بلاتيير . ولما وصل الى باب معلوم عنده وقف ثم دخل فيه فوجد امامه حارسًا . فلما رآه الحارس قام و وضع احدى اصابعه على صدره فرفع بيلو اصبعه الى فمه ولواه على شكل علامة معلومة جوابًا على اشارة الحارس . فانحنى الحارس حينئذ ودفع بابًا بجانبه مشرفًا على سلم توصل درجاتها الى جوف الارض فدخل بيلو ونزل هذه الدرجات وهو يعدها حتى صارت ١٦ درجة فاطمأن ان هذا المكان هو المكان الذي قصده

ولما صار بيلو في صحن المكان التفت فوجد حوله ظلمات بعضها فوق بعض لانه لم يكن ينير تلك القاعة الفسيحة سوى مصباح ضئيل معلق في السقف كأن الظلمة مقصودة فيها . فخطا بيلو بضع خطوات الى امام فشاهد حينئذ على نور المصباح كراسي كثيرة و بجانبها منبر للخطابة و وراءه كرسي فعرف انه للرئاسة

و بعد حين اخذ الداخلون يدخلون كما دخل بيلو و يجلسون في المقاعد وهم يتحادثون . ولم يمض نصف ساعة حتى امتلأ المكان بالجالسين

وكان هؤلاء المجتمعون مؤلفين من طبقات مختلفة . فقد كان فيهم الكبير والصغير والغني والفقير والامير والحقير . وكل واحد منهم كان واضعًا تحت ثوبه علامة الماسونية وفوق ثوبه شعار لوج « المستنيرين » الا ثلاثة وهم بيلو وفتى يقرب عمره من الواحدة والعشرين وكهلاً مهيب المنظر يبلغ الثامنة والاربعين فان هؤلاء كانوا يحملون علامة الماسونية دون علامة « المستنيرين »

ولذلك علم كل واحد من الاعضاء ان هؤلاء الثلاثة راغبون في الانخراط في سلك لوج « المستنيرين » . ومعنى « المستنيرين » في لغتهم الذي طلب النور فناله اي الذي وقف على الاسرار العظمى

ولما تكامل اجتماع الاعضاء انفتح باب سري في الجدار ودخل منه كاليوسترو الرجل الهائل الذي لقيناه غير مرة في سياق الكلام . وكان على صدره شعار الشرق الكبير وشعار

القبطي الكبير الماسونيين · وبعد دخوله اتجه نحو كرسي الرئاسة وجلس فيه

اما بيلو فانه استغرب كل الاستغراب رئاسة هذا الرجل لتلك الحفلة لانه تحقق انه هو الرجل المجهول الذي لقيه في القهوة لما كان مع بيتو منذ ثمانية ايام ودعاه الى استئصال الشر من اصله

وبعد جلوس كاليوسترو في كرسي الرئاسة انصت المتكلمون فقال كاليوسترو · ايها الاخوة · علينا في هذه الجلسة ان ننظر في امرين الاول استقبال ثلاثة يرغبون في الانضمام الينا · والثاني ان اقدم لكم حساباً عما صنعته في هذه السنوات الاخيرة لترى اذا كنت قد قمت بما عهدتم به الي حق قيام او لا · والآن فلنبدا باستقبال الثلاثة · فعلى الاعضاء الخروج لانه لا يحضر هذه الحفلة غير الرؤساء

وحينئذ انفتحت ابواب سرية ظهرت من ورائها دهاليز واروقة واسعة وكلها في ظلمات لا ينيرها الا نور ضعيف فخرج الاعضاء افواجاً افواجاً وهم يتحادثون · وبعد خروجهم اقفلت تلك الابواب فصارت القاعة في سكون تام وصار الرئيس في كرسيه والثلاثة الذين تقدم ذكرهم وهم واقفون مستندين الى الجدران في تلك القاعة الكائنة في جوف الارض في وسط ظلام الليل شبيهين بخيالات تجردت من الحس وبقيت تنتظر امراً رهيباً

وبعد حين سُمعت حركة وراء احد الابواب السرية ثم انفتح هذا الباب ودخل منه ستة اشخاص يسترون وجوههم بوجوه صناعية · وكان هولاء المتسترون فريق الرؤساء الذين يمتحنون الراغبين في الدخول

ولما جلسوا على المقاعد امام الرئيس قال الرئيس : فليخرج الثاني والثالث لامتحان الاول فخرج الفتى والكهل اللذان تقدمت الاشارة اليهما وبقي بيلو واقفاً في مكانه مستنداً الى الجدار

فاشار اليه حينئذ الرئيس وقال له : تقدم الى هنا

فدنا بيلو ووقف امام الرئيس · فقال له الرئيس · ما اسمك بين الناس · قال اسمي فرنسوى بيلو · قال وما اسمك بين المختارين · قال اسمي « قوة » قال واين وجدت النور · قال في لوج « اصدقاء الحقيقة » في سواسون · قال وكم عمرك · قال سبع سنوات

ثم ان بيلو اشار اشارة ماسونية علامة على انه نال درجة « معلم » في الترتيب الماسوني فساله الرئيس : لماذا تروم الانضمام الينا والارتقاء لدرجة اخرى · فاجاب بيلو : لان التقدم درجة تزيد الانسان قرباً من النور والحقيقة

فسأله الرئيس وهل لك شاهدان . فاجاب بيلو ليس لي سوى الرجل الذي جاءني واقترح عليّ الدخول في هذا السلك

وقد قال بيلو هذا القول وهو يحدق جيداً في عيني الرئيس لانه عناه بقوله

فسأله الرئيس : ما الذي جعلك ترغب في الدخول واذا دخلت فباي شيء تهتدي .

فقال بيلو : بعاطفة بغض الكبار وحب المساواة : فقال الرئيس ومن يضمن لنا انك تصدق في نيتك . فقال بيلو . يضمن ذلك كلام رجل تعود حفظ كلامه . فقال وما الذي جعلك ترغب في المساواة . قال لانني ولدت في طبقة واطئة . فقال وما الذي حملك على بغض الكبار . قال : هذا سرّ من اسراري . ومع ذلك فقد اطلعتك عليه فلماذا تطلب مني ان اقول جهراً ما لا اريد ان اسره الى نفسي

فقال حينئذ الرئيس . فاذاً انت تتعهد بطلب المساواة لك ولسواك وباسقاط كل ما يحول دون حرية فرنسا وخلاص العالم

فقال بيلو نعم اتعهد بذلك

فقال الرئيس . واذا كنت قد تعهدت قبل الآن بشيء يخالف هذا الامر فهل انت مستعد لنقض ذلك العهد وكل عهد مخالف لعهدنا

فقال بيلو نعم انا مستعد لذلك

فالتفت الرئيس حينئذ الى الرؤساء المتسترين وقال . سمعتم ايها الاخوة كلام هذا الرجل . وانا اعتقد انه يقول الحق فانني اعرفه واعرف قوته واجعل نفسي كفيلاً له عندكم

فاجاب الرؤساء بفم واحد . فليكن مقبولاً

فقال الرئيس لبيلو لقد قبلناك ولكن عليك ان تقسم اليمين . فقال بيلو اذكر لي اليمين لاقسمها بعدك

فرفع الرئيس يده حينئذ وقال :

« اقسم باسم الابن الذي صُلب بان تقطع كل الرباطات التي تربطك بابيك وامك واخيك واختك وامراتك واقربائك واصدقائك وعشيقتك وملكك . والمحسنين اليك وكل الذين وعدتهم بودادك وخضوعك »

فاعاد بيلو هذا القسم عن نفسه

فقال له الرئيس حينئذ « احسنت . فاقسم الآن ايضاً بان تُطلع رئيسك الجديد على كل ما تعلمه وكل ما تصنعه وكل ما تراه وان تتجسس الاخبار التي لا تستطيع الوقوف

عليها بسهولة »

فاعاد بيلو هذا القسم عن نفسه ايضاً

فقال الرئيس « واقسم ايضاً بان تفرّ من نابولي و رومه واسبانيا وكل ارض ملعونة . اقسم بانك لا تُطلع احداً على شيء مما تراه في محافلنا . واعلم ان الصاعقة ليست باسرع من الخنجر الذي يخترق صدرك اذا خنتنا واطلعت احداً على شيء من اعمالنا . »

فاعاد بيلو هذا القسم عن نفسه ايضاً

وحينئذ قال له الرئيس : « فالآن عش بنعمة الآب والابن والروح القدس »

و بذلك انتهى استقباله فخرج من القاعة ليدخل الطالب الثاني . فدخل الفتى ووقف حيث كان بيلو امام الرئيس . فابتدأ الرئيس يساله كما سال بيلو قبله

فساله ما اسمك بين الناس . فاجاب اسمي انطوان سان جوست . فقال وما اسمك بين المختارين . فاجاب اسمي « التواضع » قال واين وجدت النور . قال في لوج « انصار الانسانية » في لاون . قال وكم عمرك قال خمس سنوات . ثم اشار الفتى اشارة تدل على انه بلغ درجة الرفيق في الماسونية . فقال له الرئيس ولماذا ترغب في الصعود درجة ايضاً . فقال الفتى لان من طبيعة الانسان حب القمم العالية ولان الهواء النقي لا يكون الا فوق هذه القمم . فقال الرئيس وهل اتخذت قدوة لك بين الناس . فقال قدوتي فيلسوف جنيف عاشق الطبيعة و رجلها الخالد الذكر : روسو . فقال وهل لديك شاهدان فقال نعم وهما روبسبير الكبير وروبسبير الصغير . فقال باي شيء تهتدي في طريقك بعد دخولك في سلكنا . قال اهتدي بايماني . قال وماذا يصنع هذا الايمان . قال انه يؤدي بفرنسا الى الحرية و بالعالم الى الخلاص . قال وماذا تبذل لوصول فرنسا والعالم الى هذا الغرض . قال ابذل حياتي لانني لا املك غيرها بعد بذلي اموالي . و بعد ذلك القى عليه الرئيس باقي الاسئلة التي وجهها الى بيلو واقترح عليه ان يقسم اليمين ذاتها فاقسم سان جوست وخرج وادخل الرجل الثالث

وكان هذا الرجل مهيب المنظر كما تقدم وهو يمشي في مسيره بتردد لم يظهر له سبب. فلما صار امام كرسي الرئاسة ساله الرئيس : ما اسمك بين الناس. فاجاب اسمي لويس فيليب جوزيف دوق دورليان . فقال وما اسمك بين المختارين . قال اسمي « مساواة » فقال واين وجدت النور . قال وجدته في لوج « احرار الناس » في باريز . فقال وكم عمرك . قال لم يعد لي عمر . ثم اشار الدوق اشارة علامة على انه نال رتبة « وردة الصليب » .

فقال الرئيس وما الذي حملك على طلب الانخراط في سلكنا

فاجاب الدوق

« لانني عشت كثيرًا بين الاكابر فضجرتُ من ذلك ورمتُ المعيشة بين البشر الحقيقيين . وسئمت الحياة بين الاعداء فوددت المعيشة بين الاخوة والاصدقاء »

فقال له الرئيس . وهل لديك شاهدان . قال نعم وهما « الاحتقار والبغض » فقال وباي شيء تهتدي في سبيلك . قال بحب الانتقام . فقال ممن تحب الانتقام ؟ . قال : من الذي اهملني ولم يعبأ بي . ومن التي اهانتني ووضعتني (١) فقال ماذا تبذل للوصول الى هذا الغرض . قال ابذل مالي وحياتي وشرفي . قال هل تعد بانك تقطع كل رباط يربطك بغيرنا وتترك كل عهد اعطيته الى احد سوانا . قال نعم اعدكم بذلك

فالتفت كاليوسترو حينئذ الى الرؤساء وقال لهم . سمعتم مقال الطالب فهل ترون قبوله . فاجابوا نعم ولكن على شرط ان يقسم اليمين

فقال كاليوسترو للدوق هل تعرف اليمين . فاجاب كلا ولكني اقسمها مهما كانت شديدة . فقال لا اخفي عنك انها يمين شديدة ولاسيما لمن كان مثلك . فقال ليست هي باشد من الاهانات التي لقيتها . فقال الرئيس حينئذ

« اقسم بان تقطع كل الرباطات التي تربطك بالاب والام والاخ والاخت والامرأة والاقرباء والاصدقاء والعشيقة والملك والمحسنين اليك وكل الذين وعدتهم بودادك او خضوعك »

فبقي الدوق صامتًا متاملاً وقد ظهرت على وجهه علامات القلق وجرى العرق على جبينه . فقال له الرئيس اما قلت لك انها يمين شديدة على من كان مثلك . فقال الدوق بل اقسم . ثم اقسم تلك اليمين وهو يسكن جاشه فقال له كاليوسترو واقسم ايضًا بانك تحمل السيف والنار والسم وكل الوسائل الفعالة الواجبة لتطهير الكرة الارضية من الذين يعبثون بالحقيقة فيها ويرومون اختطافها من ايدينا . فاقسم الدوق هذه اليمين ايضًا . فالتفت كاليوسترو الى الرؤساء وسالهم . ما رايكم . فاجابوا . فليكن مقبولاً . فقال كاليوسترو حينئذ للدوق

حذار ان تُطلع احدًا على شيء مما تراه في محافلنا . واعلم ان الصاعقة ليست

---

(١) يعني بذلك الملك والملكة

باسرع من الخنجر الذي يخترق صدرك اذا خنتنا واطلعت احدًا على شيء من اعمالنا :
والآن عش بنعمة الآب والابن والروح القدس »
ثم انه اشار بيده الى الباب يدعوه الى الخروج فتنفس الدوق الصعداء واندفع نحو
الباب وهو يقول — الآن صرتُ انتقم منهما

الفصل الخامس والعشرون

﴿ شعار الماسونية ﴾

(الحرية والمساواة والاخاء)

(خطبة تفسيرية)

و بعد خروج هذا الرجل صاح الرئيس بصوته الجهوري : فليدخل الجميع الآن
لابسط لهم الحساب الذي وعدتهم به · وفي الحال انفتحت الابواب و بعد حين اندفع
الاعضاء الى القاعة واخذوا مجالسهم · ولما اقفلت الابواب رفع كاليوسترو يده لانه كان
حريصًا على الوقت واخذ يقول

ايها الاخوة · لا بدَّ ان يكون بعضكم قد حضر الحفلة التي عقدناها منذ عشرين سنة
في مغارة في جبل « الصاعقة » القائم على مسافة ٥ اميال من نهر الرين وعلى مسافة ميلين
من قرية دننفلس · فاذا كان احد منكم قد حضر ذلك الاجتماع فليرفع يده وليقل
انني حضرت

فارتفعت حينئذ ست ايدي وسُمع ستة اعضاء يقولون انني حضرت

فاردف كاليوسترو بقوله

فمن ذلك يظهر ان الحاضرين بيننا من الذين حضروا ذلك الاجتماع ستة اعضاء فقط
اما الباقون فبعضهم ماتوا و بعضهم تفرقوا في الكرة الارضية لاتمام العمل الذي شرعنا فيه·
ولم يكن هذا العمل منذ ٢٠ سنة شيئًا مذكورًا · فان الظلام كان متكاثفًا في العالم ولم
يكن النور ياتي الا شيئًا فشيئًا · وقد تتبعتُ مجرى هذا النور منذ الازمنة القديمة لانني
لا اعرف الموت ولا الموت يعرفني كما تعلمون · فرايت اولاً الشعوب محنية تحت نير العبودية
ثم انتقلتْ من دور العبودية الى دور الذل والعمل بالاجرة لاشباع اسيادها · وهذا الدور
هو بمثابة تمهيد للحرية العظيمة فكانه النجوم التي تشرق في كبد السماء قبل طلوع القمر المنير ·

ولقد نظرتُ بعيني رومه والبندقيــة وفلورنسه وسويسره وجنــوه وبيره واريزو هذه المدن الجنوبية التي ينبت فيها النبات سريعاً وينضج الثمر سريعاً فوجدت ان فسيلة الحرية كانت اول ما انبتت فيها وان الجمهوريات جُربت تحت سمائها فعاشت منهن اثنتان او ثلاثة لا تزال باقية الى الآن · ولكن هذه الجمهوريات كانت صغيرة ومحكومة بطبقات النبلاء او المستبدين ولذلك لم تنجح النجاح المطلوب فاحتجنا الى دولة عظمى تصطبغ بصبغة الحرية وتقوم فيها جمهورية كبرى تسري عدواها الى اوربا كلها · الى شعب حيّ قوي لتتخذه الشعوب قدوة لها

يومئذ التفتنا نفتش عن هذا الشعب بين شعوب اوربا ونسال الله ان يهدينا اليه فمدّ القادر اصبعه واشار الى فرنسا · فتاملنا فوجدنا ضالتنا في هذه المملكة · فقررنا حينئذ تحرير فرنسا اولاً وبعد ذلك نردف باقي الدول بها · ولكن هذا العمل كان شاقاً وعظيماً · فان اوربا كانت مشطورة شطرين · شطر تحت رعاية النمسا وشطر تحت رعاية فرنسا · وكان في عرش النمسا الامبراطورة ماريا تريزه التي كانت اكثر الساسة دهاء في اوربا · فرغبةً منها في وضع يدها على فرنسا ايضاً للاستبداد باوربا كلهـا ازوجت الملك لويس السادس عشر بابنتها · فصار الدخول في فرنسا للشروع في العمل الذي نويناه شاقاً جدًّا · وبات كثيرون يتساءلون من يدخل الى غابة الاسد · من يرمي نفسه بين مخالب الكواسر · فاجبتهم « انا » ادخل وارمي بنفسي · فسالوني كم سنة تطلب لاتمام العمل · فقلت اطلب عشرين سنة · فضحك بعضهم وقال كيف تستطيع ان تهدم في عشرين سنة ما تمّ بناؤه في عشرين قرن

وهنا وقف كاليوسترو فصار الاعضاء يهمسون فيما بينهم بكلام الاستحسان فاردف بقوله

ولكنني نلت ما طلبته وهو مهلة عشرين سنة ودخلت الى فرنسا في اثر الملكة حين دخولها اليها · فكان مروري في وسط اقواس النصر المنصوبة لها من سترسبورج حتى باريز · وقد كان الله معي فاعانني على عملي · ولم اكن سوى آلة في يده · وكل عملي كان مقصورًا على رفعي الحجارة من طريق المركبة الجارية الى غرضها وردم الحفر التي كانت امامها · واليكم ايها الاخوة ما تمّ في مدة العشرين سنة الماضية

« حُلّ البرلمان · مات لويس الخامس عشر الذي كان ملقباً المحبوب مع انه كان مكروهاً من الجميع · وضعت الملكة اولادًا مشتبهاً بهم فالتى ذلك شبهة على فضيلتها

وكان به اهانة شرفها كامرأة مثلما اهينت في « مسالة العقد » كملكة · ظهور ضعف الملك في سياسة مملكته حتى استوزر اضعف الناس رايًا واضطر الى جمع مجلس الاعيان · تقرير مجلس الاعيان وجوب جمع مجالس الولايات · اجتماع مجالس الولايات من قبل الامة وجعلها نفسها « مجمعًا وطنيًا » · اختلاف اعضائها من نواب الشعب والاكليروس والنبلاء وغلبة نواب الشعب · الاستيلاء على الباستيل · طرد الجنود الاجنبية من باريز وفرساليا · اظهار الشعب للنبلاء في ٤ اغسطس ان نبلهم لا يغني شيئًا · اظهار الشعب للملك والملكة في ٥ و ٦ اكتوبر ضعف سلطتهما · اظهار الامة للعالم في ١٤ يوليو عام ١٧٩٠ اتحادفرنسا كلها · ثلم صيت الامراء بمهاجرتهم · اضعاف شهرة مونسيو شقيق الملك بسبب حادثة ففراس · اقسام يمين الامانة للدستور على مذبح الوطن · تايد رئيس المجمع الوطني وتقوية منصبه باقامة عرش له شبيه بعرش الملك · جعل الدستور والامة فوقهما جميعًا · اصغاء اوربا كلها الى هذه الحوادث العظيمة · تصفيق الذين يستحسنونها وارتجاف فرائص الذين يكرهونها »

هذا ما تم ايها الاخوة في فرنسا على يدي في المدة الماضية · فهل قمت بما كان يجب عليّ

فنادى الاعضاء جميعًا نعم نعم لا شلت يمينك · فاردف كاليوسترو بقوله

ولكن هل تظنون ان عملنا قد انتهى · كلا فان الدستور الذي وُضع لم يؤسس على اساس متين والاعمال التي عُملت لا تزال قلقة مضطربة لقرب العهد بها فلنعد لاتمام هذا العمل ولنقسم اننا لا نعود عنه قبل ان نبرز من حيز القوة الى حيز الفعل شعار المسيح الذي هو : الحرية والمساواة والاخاء

فصرخ حينئذ من بين الحاضرين صارخ : فسر لنا اولاً مرادك بالحرية والمساواة والاخاء لنرى اذا كان يجب المسير في الطريق التي تذكرها

فحدق كاليوسترو في وجه المعترض · وكان هو مكسيميليان روبسبير المشهور · ثم قال له لبيك يامكسيميليان · اسمعوا ايها الاخوة لافسر لكم هذه الكلمات العظيمة

﴿ الحرية ﴾

لقد احسنتم في طلبكم مني تفسير الحرية والمساواة والاخاء فان كثيرين من الناس يسمعون هذه الكلمات ولا يفهمونها حق الفهم · اما الحرية التي هي اولها فكثيرون من الناس لا يفرقون بينها و بين « الاستقلال » ويحسبون ان للكلمتين معنى واحدًا · والحقيقة

ان بينهما فرقاً عظيماً · فان معنى الاستقلال الانفراد عن الغير ولا يكون هذا الاستقلال الا لسكان الجبال · خذوا الكورسيكي والاسكوتلندي مثلاً فانهما مستقلان ولكنهما لا يعرفان الحرية · فالاسكوتلندي يطعن بخنجره و يعتدي ببندقيته واذا طلبه احد لجأ الى الجبال كالثعالب والنسور والوحوش البرية فلا يقدر عليه احد · هذا هو الاستقلال· اما الحرية فانها تقتضي الاجتماع والعمران · وتعريفها ان يكون لكل انسان الحق بان يصنع لمصلحته ولنفسه كل شيء لا يكون فيه ضرر لسواه · فحق الانسان الواحد يقف اذًا عند حق الانسان الثاني · وهذا الحق مقدس وعام لا يختص بفئة دون فئة· ولا بفريق دون فريق · فالحرية اذًا نعمة عامة لجميع البشر ومنٌّ سماوي منحه الله الى الناس ليتمتعوا به على السواء · وكل شعب يحصل على هذا المن عليه ان يقتسمه مع الشعوب الاخرى

وفي الحرية تنمو قوى الانسان كلها وتنطلق المواهب من اسرها · في الحرية يبيت الانسان آمنًا على نفسه وعرضه وماله بلا خوف ان يستيقظ في اليوم الثاني وهو فاقد هذه النفائس الثلاث · فالحرية اذًا وسط صالح تنمو فيه كل الفضائل البشرية · والعبودية وسط موبوء تنمو فيه جراثيم الرذائل والفظائع والدنايا على انواعها

فدوى هنا تصفيق الاعضاء في القاعة دويًا شديدًا فاردف الرئيس بقوله

﴿ المساواة ﴾

اما المساواة فلا اريد بها استواء الناس كلهم في العقول ورفعة المقام · كلا فاننا لا نقدر ان نغير الطبيعة · واي شارع يستطيع بمواد قانونية يضعها في دستوره ان يغير جبل حملايا مثلاً فيرفعه امتارًا او ينزله امتارًا · كلا ذلك امر لا يستطيعه احد من البشر كما انه ليس في امكان احد ان يجعل من رجل قزم رجلاً كجليات او من رجل خامل ذي عقل قاصر رجلاً كفولتير

وانما المساواة الحقيقية هي اطلاق الحرية لجميع الناس على السواء ليستخدم كل واحد منهم قواه ومواهبه كما يشاء· المساواة هي الغاء الامتيازات والمراتب الوراثية ورفع الحواجز من بين البشر ليكون كل واحد قادر على الوصول الى الرتب والوظائف العمومية بقوة نفسه وحسن عمله · ومكافأة الفضيلة والفضلاء والعلم والعلماء لا اختصاص كل مكافأة بابناء الطبقات العالية او ابناء جنس مخصوص · وحينئذ يصير اعلى مقام في الدولة مفتوحًا لافضل رجل في تلك الدولة · ومن هنا نشتق مسالة الانتخاب لوظائف الدولة لا توليتها بالصنيعة والمحسوبية — « فالانتخاب » من اول شروط المساواة · ثم ان الانتخاب يقتضي امرًا آخر

وهو مقدرة المنتَخب (بفتح الخاء) وكفاءته للعمل الذي يُعهد اليه وبناء على ذلك يُستخرج من مسالة الانتخاب مسالة ثانية وهي مسالة « الكفاءة » . ومن « الانتخاب والكفاءة » يُستخرج امر ثالث وهو « وجوب الامتحان » . فالمساواة اذاً هي عبارة عن فتح طريق كل الوظائف والاعمال لاي انسان كان بواسطة الانتخاب المبني على الكفاءة والامتحان . هذه هي المساواة

فهتف الاعضاء حينئذ هتاف الاستحسان وصفقوا لرئيسهم تصفيقاً شديداً . ولما سكنت ضوضاء تصفيقهم اردف كاليوسترو بقوله

﴿ الاخاء ﴾

اما الاخاء فيا له من لفظ عظيم حلو في الاذن والقلب : الاخاء كلمة سماوية تهتز لها اعصاب الانسانية كلها لانها بها تذكر انها عائلة واحدة وان البشر مهما اختلفت بلادهم ومذاهبهم والوانهم فانهم اخوان في الانسانية . صدقوني ايها الاخوة انه سياتي يوم تُمحى فيه كلمات « الوطن . والوطني . والوطنية » من اللغة البشرية كما تُمحى آثار النجوم في آخر الليل حين طلوع غرة الصباح . سياتي يوم يتقرب فيه الشعوب بعضها من بعض بواسطة المواصلات البرية والهوائية تقرباً يفتح عيونهم ويزيل الحدود والحواجز من بين بلادهم فيبصرون حينئذ ان الملوك والحكومات تسلحهم وتسوقهم بعضهم على بعض ليقتلوا بعضهم بعضاً وحينئذ يرفضون هذا الاثم الفظيع ويتعانقون بدلاً من ان يقتتلوا . انظروا هل جاء المسيح ليخلص اهل الناصرة فقط . كلا . هل جاء ليخلص اليهود فقط . كلا . بل جاء ليخلص بني البشر كلهم . فهل ترومون دليلاً على اخاء البشر احسن من هذا الدليل . فتشجعوا ايها الاخوة وتقدموا . وسيروا الى الامام لمحاربة الشر ولا تخافوا . ازحفوا لتمهيد الطريق لاولادكم كرسل للمساواة والاخاء والحرية . وليكن الله القوة والحرية معكم »

ولما اتى الرئيس على هذا الكلام سكت لفراغه من خطابه فعلت حينئذ في القاعة ضجة التصفيق والهتاف حتى ارتجت جدران الاقبية في جوف الارض وخيل للسامع ان الارض كادت تميد من شدة تلك الضجة . وبعد ذلك نهض الرؤساء الستة المتسترون فدنوا من الرئيس وقبلوا يديه ثم انحنوا باحترام وخرجوا لانصراف الجلسة . فقام الاعضاء عند ذلك واحداً واحداً واخذوا ينحنون امام الرئيس ويخرجون . وبعد حين خلت منهم القاعة واطفأت الانوار وبقي الرئيس كاليوسترو جامداً في كرسيه في الظلمة في جوف الارض كانه ملك تلك الظلمات المتكاثفة

الفصل السادس والعشرون

﴿ وفاة (ميرابو) اخطب خطباء فرنسا ﴾

ولوعه بالازهار والنساء · عذابه على فراش الموت · احتفال الشعب به ودفنه في البانثيون · ثم اخراجه منه بامر من الكونفانسيون

بعد مرور بضعة اشهر على هذه الحوادث اي في اواخر مارس من عام ١٧٩١ كان الدكتور جيلبار سائرًا في مركبة مسرعة الى جهات ارجانتيل حيث استاجر ميرابو قصرًا كبيرًا له كما تقدم الكلام · ولما وصل الى القصر صعد اليه مسرعًا فاستقبله تش خادم ميرابو والدموع في عينيه ثم ادخله على مولاه

وكان ميرابو مستلقيًا على مقعد بين الازهار وهو في الم ووجع · فدنا منه الدكتور جيلبار وفحصه فوجد ان المرض يشتد عليه شيئًا فشيئًا

اما ميرابو فانه نظر اليه نظرة ملئها اليأس وعدم الاكتراث وابتسم له ثم قال دعني ايها الدكتور فانني لا اريد الحياة

فساله الدكتور وما السبب · فاجاب ميرابو وقد تنهد تنهدًا عميقًا كنتُ اروم الحياة لاتمام عملي اما الآن فقد ظهر لي انني لا استطيع اتمامه لانها تعاكسني

ففهم الدكتور من كلام ميرابو انه يعني الملكة

ثم قال ميرابو · انني انفقتُ بالامس قوتي كلها للدفاع عن مسالة المناجم التي تهم صديقي الكونت لا مارك · ولقد حملت على الاعداء خمس حملات وفي الحملة الاخيرة دحرتهم الى وراء ولكني سقطت في ساحة القتال كما ترى

وكان ميرابو يتكلم وهو خائر العزم كمن نفدت قواه كلها

فقال له الدكتور لا بأس فانك تسترد قواك باذن الله · ثم انه اقام عنده مدة وفصده من قدميه واوصاه بالابتعاد عن الازهار والنساء وانصرف في سبيله

اما ميرابو فانه نادى خادمه بعد خروجه وقال له املأ المائدة زهرًا وادعُ مدام اوليفا ان تتفضل بزيارتي

وهكذا صرف ميرابو ليله مسرورًا صاحيًا

ولكن لم تشرق شمس النهار التالي حتى قُرع جرس منزل الدكتور جيلبار بعنف فانتبه الدكتور من منامه واذ فتح الباب وجد امامه تش خادم ميرابو يدعوه الى زيارة

سيده في الحال · فاسرع الدكتور الى مريضه فوجده اضعف مما كان امس فسأل الخادم كيف صرف ميرابو ليله فاشار الخادم الى غرفة المائدة فدخل الدكتور اليها فوجد على المائدة فضلات طعام الليل وشرابه والازهار مبعثرة فيها · فهز راسه ثم سار لمراقبة مريضه

وكان ميرابو حينئذ مطروحاً على مقعد وهو يكاد يفقد صوابه من ضعف قواه · وكان من حين الى حين يردد هذا القول : آه من ناكري الجميل · فلما سمع الدكتور هذا الكلام لبث صامتاً · فنظر اليه ميرابو بعينين منقدتين بجمر الحمى وما وراءها من نار الضلوع ثم قال له · اما قلت لك ايها الدكتور انهم لا يعرفون لي جميلاً · فقال له الدكتور وهل صحيح ما تقوله من انه لم يفد احد من قبلهم · قال سل تش ايها الدكتور اذا كنتَ لا تصدقني · فقال الدكتور ولكنني قابلت الملكة امس بعد فراقك ووعدتني بانها ترسل من يستخبر عن صحتك · فهز ميرابو براسه وقال : وعدوك وياطالما اخلفوا الوعود · آه يادكتور لذلك اريد ان اموت

وحينئذ اخذت ميرابو نوبة هائلة فتشنجت اعضاؤه الضخمة واضطرب جسمه الممدد الذي كان وهو يتشنج شبيهاً بجبار يصارع فراشه · فاخذ الدكتور يد ميرابو بحزن وبقي بازائه يراقب سير المرض ويقاوم ملاك الموت القادم · فساعدت بنية المريض القوية عناية الطبيب ففتح ميرابو عينيه بعد مدة وابتسم لطبيبه وصديقه · ثم عاد الهدوء الى المريض وجسمه فتنفس المريض الصعداء وطلب ان يراجع السجل الموضوع للزائرين ليرى اذا كان قد قدم احد من قبل البلاط يسال عن صحته · ولما لم يجدوا في السجل اسم احد من قبل البلاط تنهد ميرابو وقال : اما قلتُ لك انهم من ناكري الجميل

وبعد هنيهة صاح ميرابو وقد اتخذ وجهه شكلاً هائلاً : بيتْ بيتْ · آه يا بيتْ · سيخلو لك الجو بعد مماتي · ليتني اعيش بضع سنوات ايضاً لاريك كيف تكون السياسة

وكان ميرابو يخاطب بهذا القول الوزير الانكليزي بيتْ الشهير الذي كان صارفاً سياسته يومئذ الى معاكسة فرنسا لانها ساعدت الولايات المتحدة على نيل استقلالها · ومنهم من يتهم هذا الوزير بانه كان يرشي بالاموال الانكليزية بعض دعاة الفتنة في فرنسا لاثارة الفتن والاضطرابات الدموية فيها وذلك رغبة في حمل اوربا على الاتحاد عليها كما اتحدت بعد ذلك ·

وفي هذا الحين دخل الخادم وقال لميرابو ان احد الفتيان يروم مشاهدته · فقال له ادخله لاراه · فدخل بعد حين فتى في زهرة العمر والدموع في عينيه · وكان هذا الفتى

قد عرف ميرابو في احدى نزهاته في ضواحي ارجنتيل . وقد جاء الآن يعود الرجل العظيم لما سمعه من خبر انتكاسه . ولما دخل سار الى فراش ميرابو فتناول يد المريض وقبلها ثم خرج من غير ان يقدر على الكلام . على ان الخادم تش لم يلبث بعد خروجه ان دخل وفي يده ورقة منه فقراها ميرابو فوجد فيها ما ياتي

« قرات امس في جريدة انكليزية ان اطباء لندن قد اخذوا رجلاً مريضاً بداء مريضنا العظيم وافرغوا في جسمه دماء صحيحة بعد استفراغ دمه منه فشفي المريض من دائه . فانا اقدم الآن نفسي حباً بانقاذ المسيو ميرابو وارجو ان يُستخرج دمي ويُفرغ في جسمه اذا كان ذلك يشفيه فانه دمٌ نقي ولا ضعف فيه »

فلما قرأ ميرابو هذا الكلام طلب الفتى ليشكره على هذا الكتاب الذي يدلُّ على قوة نفسه وشرف اخلاقه فوجد انه قد خرج من المنزل فرارًا من هذا الشكر ولكنه ترك في يد الخادم عنوان منزله ليطلبوه اذا اجابوه الى اقتراحه

اما الدكتور جيلبار فقد اعجب بهذا الشباب الذي لا يعباء بالموت بل يطلبه انقاذًا لرجل يُعظم قدره ويُعجب به . فقال في نفسه ان الامة التي ينشاء فيها شبان كهذا الشاب ستصنع امورًا عظيمة . وان عصرًا يظهر فيه مثل ذلك ستحدث فيه احداث جسيمة

وكان الشعب مجتمعاً حول منزل ميرابو الوفاً الوفاً وهو يهتف « ليحيَ ميرابو ليحيَ ميرابو » فامر ميرابو بفتح النافذة المشرفة على الطريق ليسمع هتاف الشعب له . ثم اخذ يقول : ما اكرمك ايها الشعب واعرفك لجميل الذين يخدمونك

وكانّ دخول الهواء الى غرفة المريض اذكره الطبيعة والسماء والارض فطلب زهرًا الى غرفته . فبلغ هذا الطلب الى الشعب فساروا من كل جانب يطلبون الزهر و يصيحون ان ميرابو يطلب زهرًا . فانفتحت حينئذ نوافذ المنازل وابوابها واخرج الناس منها احسن ما لديهم من الازهار فحمل الشعب شيئاً كثيرًا منها ونقله الى منزل ميرابو حتى امتلاء المنزل به . فسرَّ ميرابو بهذه الهدية التي جاءه بها شعب باريز وكرر قوله : ما اكرمك ايها الشعب واعرفك بجميل من يخدمونك

و بعد ساعتين عاد الى ميرابو شيء من قوته فسرَّ الدكتور بذلك وعزم حينئذ على مفارقة المنزل على ان يعود في اليوم التالي . ولما خرج من المنزل كان قد امسى المساء فنادى ميرابو خادمه تش وقال له املأ غرفة المائدة ازهارًا وادعُ مدام اوليفا

***

ولكن ميرابو — ذلك الجبار الذي كان مولعاً بالنساء والازهار — لم يستطع اتمام تلك

الليلة · فان خدم المنزل انتبهوا على صياح مدام اوليفا فاسرعوا فوجدوا ميرابو مطروحاً بين ذراعيها وهو في نوبة شديدة · فبعد ان نقلوه الى فراشه ساروا في طلب الدكتور جيلبار · ولما جاء الدكتور وجد مريضه في اسوإ حال · ولكنه لما وقع نظره على مدام اوليفا استنار عقله بغتة ولبث مبهوتاً

ذلك ان مدام اوليفا هي المراة الجميلة التي كانت شبيهة بالملكة كما تقدم الكلام عنها في عقد الملكة · وكانت متزوجة بالمسيو بوزير كما سبق الكلام · وقد راى الدكتور في ذات يوم المسيو بوزير يوزع منشورات ضد ميرابو وراى الآن امراته في منزل ميرابو تسكن بيتاً بازائه فاستنتج من ذلك استنتاجاً هائلاً · استنتج ان كاليوسترو استعمل الزوج لتسميم صيت ميرابو وافناء ما له من السلطان على الشعب واستعمل الزوجة لافناء قواه لان وجوده حياً كان سنداً عظيماً للملكية وعثرة في سبيل مقاصده

فخيل له منذ هذا الحين انه ادرك سر المسالة

اما ميرابو فلما وقعت عيناه على عيني جيلبار ابتسم له ابتسامة معناها لم ترسل الملكة بعد من يستخبر خبري · فوقف جيلبار بازاء فراشه واخذ يتامل في وجهه · فاشار له ميرابو اشارة الى فمه · ثم فهم الدكتور منه انه يطلب منه شيئاً من اكسير الحياة الذي سقاه منه قبلاً فرد اليه قوته · فتناول جيلبار زجاجة كانت في جيبه ثم صب منها قدر ملعقة صغيرة وافرغه في فم ميرابو · فلم يلبث ذلك الجبار الملقى على فراشه كجزع ممدود بلا قوة ولا حراك ان دبت الحياة في جسمه وانطلق لسانه · فكانت اول كلمة قالها : اما قلت لك ايها الدكتور انهم لا يكرهون موتي · ثم قال له : صب صب كل هذه الزجاجة في فمي اذا شئت ان يوثر علي اكسيرك تاثيراً فعالاً · فقال الدكتور وكيف ذلك · فقال ميرابو اتظن انني اقتصرت على تناول ملعقة من الزجاجة التي كنت اعطيتنيها · كلا فانني رجل تعودت الافراط في كل امر وقد افرطت في هذا الامر ايضاً · فقد حللت هذا الاكسير تحليلاً كيماوياً وعرفت المواد التي ركب منها · لقد عرفت انه يستخرج من اصول القنب الهندي وانه الحشيش بعينه فاستحضرت منه شيئاً كثيراً وصرت اتناوله في ملاعق كبيرة

فصاح الدكتور ويل لك فانك كنت تتناول سماً

فقال ميرابو ولكن ما احسن هذا السم ايها الدكتور فانه يفرح الكروب ويضاعف قوى الانسان مئة مرة بل الف مرة فكانه يضاعف حياته وملاذه · ولقد اعطاني الله حياة مملوءة بالفقر والشقاء والمتاعب فلا اعلم الآن هل يجب علي ان اشكر الله الذي

اعطاني هذه الحياة ام ان اشكرك انت على هذا السم الذي قدرتني به على التمتع بها . فاملأ فاملأ ملعقتك ايها الدكتور واسقني صرفاً

فاطاع الدكتور وسقى ميرابو ملعقة من شرابه . ولما استقرّ هذا الشراب في جوفه ابرقت عيناه وزاد لسانه انطلاقاً فقال وكأنّ حجب المستقبل قد زالت من امام وجهه وهو مقترب من الابواب الابدية :

سقياً للذين يموتون في هذا العام ولا ينظرون اهوال الثورة القادمة . فان المستقبل سيلد آفات واهوالاً لان الثورة حدثت الى الآن في الافكار وستحدث غداً في الاسواق والشوارع . ومع ذلك فانني آسف لانني اموت من وجه واحد . ذلك لانني لم اكمل بعدُ العمل الذي اروم عمله فاذا جاء بعدي قوم ينظرون في عملي اتهموني عدة تهم لانه ناقص لا يدل عليّ دلالة كاملة . ولكن ماذا اعمل فانها رفضت مساعدتي . وهكذا يبقى اسمي مكروهاً من فرنسا واوربا والعالم اجمع

فقال الدكتور ولماذا امرعتَ اذاً في الاجهاز على نفسك وطلبت الموتَ

فقال ميرابو : ذلك لانني قطعتُ الامل منها (يعني الملكة) فانني وددت خدمتها وخدمة عرشها اما هي فكانت تسخر مني وتتخذني آلة بين يديها ... ولكن دعني منها ايها الدكتور وعدني الآن وانا على ابواب الموت وعداً صادقاً وهو انك اذا رايتني اتعذب قبل فراق الروح تعطيني دواء يسهل لي الخروج من هذه الحياة

فاجفل جيلبار عند هذا السؤال وقال له لقد وعدتك بان لا افارقك ايها الصديق وانا مستعد لاسعافك ومساعدتك في حياتك وموتك

فقال ميرابو شكراً لك ثم اتكأ على وسادته

***

ذلك ان القوة التي اثارها الحشيش هنيهة في جسم هذا الجبار لم تلبث ان نفدت وعاد اليه الضعف والخوار . ثم اصابته نوبة غيبته عن الوجود وبرد جسمه فعلم الدكتور ان ذلك الرجل العظيم قد اخذ يدخل في الاحتضار . فقال في نفسه هذه هي ساعة الصراع بين الطبيب والموت . ثم اخذ يد ميرابو بين يديه . فالتفت اليه ميرابو وعيناه متقدتان بنار النزع وجسمه مضطرب اشد اضطراب واشار بيده اشارة خفيفة معناها انه يريد الشرب . وكان يطلب بذلك ان يشرب دواء يسهل له مفارقة الحياة . فتجاهل الدكتور هذا الطلب لانه لم يعده باعطاء دواء يقصر عمره وانما وعده بالمساعدة . فطلب ميرابو ان يكتب فجاءوه

بقلم وورق نخط هاتين الكلمتين بيد ثابته « النوم · والموت · » يريد انه يطلب ان يشرب دواء يجلب له النوم فالموت · فاظهر جيلبار انه لا يفهم ايضاً · فغضب ميرابو وهو ملجوم اللسان وكتب بيد مرتجفة « ان آلامي صارت لا تُحتمل فهل من الصداقة ان أُترك في هذا العذاب · اليس الاجدر ان أعطى بضع نقط من الاوبيوم لاستريح راحة ابدية »

ولكن الدكتور بقي متردداً · فنظر اليه ميرابو نظرة الحنق وهمَّ بالكلام فلم يقدر لان لسانه كان محبوساً · فكاد يتمزق غيظاً والماً · ولكن كانَ هذا اليأس والالم قد أطلقا لسانه فصاح · آه من الاطباء آه من الاطباء · اما انت صديقي ايها الدكتور جيلبار · اما وعدتني بانك تنقذني من عذاب الموت · فانا استحلفك بالصداقة والشرف ان تنجز وعدك

ثم ان ميرابو عض وسادته باسنانه من شدة الالم الذي كان يعانيه وتقلب في فراشه تقلب الملسوع

فقال له الدكتور حينئذ كن مستريحاً ياصديقي فانني اجبتك الى طلبك

وعند ذلك تناول الدكتور قلماً واخذ يكتب وصفة الدواء الذي يسهل لميرابو الخروج من عالم الحياة الى عالم الراحة على طريق النوم · على انه لم يتم كتابة الورقة التي كانت في يده حتى وثب ميرابو من فراشه وثبة الاسد وطلب قلماً · فناوله الدكتور في الحال القلم الذي كان في يده · فقبض عليه ميرابو بيد مشتعلة وعيناه تقدحان شرر الموت ثم كتب به ثلاث كلمات بخط لا يكاد يُقراء وهي : « الهرب الهرب الهرب » ثم همَّ بتوقيعها بخطه فلم يستطع ان يكتب فيها سوى الاحرف الاربعة من اسمه · وبعد ذلك رفع الورقة ومدها نحو جيلبار وقال « هذه لها » ثم انطرح على وسادته كجزع شجرة القيت على الارض بلا حركة ولا حياة

فاسرع الدكتور حينئذ اليه واخذ نبضه فتحقق ان القضاء قد حلَّ به فالتفت الى الحاضرين وقال : ايها السادة ان ميرابو استراح من عذابه

وهكذا مات ميرابو · مات شيشرون · مات ذيموستين ·

اما الدكتور جيلبار فانه بعد ان تحقق موت ميرابو دنا من جبينه فقبله والحزن في نفسه ثم طوى باعتناء الورقة التي ناوله اياها ميرابو ووضعها في جيبه لايصالها الى السيدة التي كُتبت لها

وهذه السيدة هي الملكة كما يعلم القارى

فكانَّ ميرابو قال لها بهذه الورقة انكِ كرهتِ الاستسلام اليَّ والعمل بنصائحي لانقاذك

وانقاذ العرش معك فكنت سبباً في موتي · وبما انني مت لم يبق لك من سبيل للنجاة غير الهرب من هذه البلاد

***

ولما انتشر خبر وفاة ميرابو بين جماهير الشعب المزدحمة حول منزله قامت قيامتهم وصاحوا صياح الاسف والحزن العظيم · ثم ذاع الخبر حتى وصل الى باريز · فقامت له المدينة وقعدت · وحينئذ امكن الناظر ان يرى ويقيس المكان الواسع الذي كان يشغله ميرابو في الامة الفرنسوية · اما الشعب فقد كان اكثر الناس حزناً على خطيبه العظيم · ولذلك بادر الى اعلان الحزن عليه · واول ما صنعه انه سار الوفاً الوفاً الى الملاعب (التياترات) فمزق اعلاناتها واقفل ابوابها بالقوة · وكان في ذلك اليوم في قصر بشارع شوسه دنتين مرقص كبير فهجم الشعب على القصر ففرق الراقصين والراقصات وكسر الآلات الموسيقية

وعند اجتماع المجمع الوطني في ذلك الصباح ابلغه رئيسه ذلك الخبر الفاجع · فنهض باريز الى منبر الخطابة وسال المجمع ان يقرر في وقائعه الرسمية الاسف على هذا الرجل العظيم وان يدعو اعضاءه الى حضور جنازته بصفة رسمية

وفي ٣ افريل وفد على المجمع وفد ينوب عن باريز وساله ان يقرر تخصيص كنيسة (سنت جنفياف) لدفن الرجال العظام فيها وجعل ميرابو اولهم · فقرر المجمع هذا القرار · ومنذ هذا الحين صار يُطلق على كنيسة جنفياف اسم « البانثيون » وهو مدفن اعاظم رجال فرنسا في هذا الزمان (١)

وبما ان هذا المكان لم يكن معداً لدفن الرجال العظام فقد قرر المجمع في قراره ان توضع جثة ميرابو وقتياً في مدفن تحت الكنيسة بجانب نعش الفيلسوف ديكارت

---

(١) في هذا العام جعلت الثورة الفرنسوية كنيسة جنفياف في باريز مدفناً لاعاظم الرجال وقد قرر المجمع الوطني ان يُنقش في صدر هذا المدفن الكبير هذه الكتابة « ان الوطن لا ينسى جميل رجاله العظام » ثم لما عادت الملكية اعادت حكومتها هذا المكان كنيسة كما كان · ولكن لما عادت الجمهورية الثالثة اعادته مرة ثانية مدفناً لاعاظم الرجال وكان اول من دفنت فيه فيكتور هيغو الشاعر المشهور · وقد احتفلت فيه في هذا الشهر بتذكار مرور مائة سنة على ولادة هذا الشاعر · اما باني كنيسة جنفياف فهو لويس الخامس عشر وقد سماها باسم جنفياف لان باريز موضوعة في التقاليد الكاثوليكية تحت حماية هذه القديسة

المدفون هناك

وفي اليوم التالي سار المجمع الوطني بتمامه الى قصر ميرابو في اوجنتيل للاحتفال بتشييع جثته الهامدة . فوجد هنالك الوزراء والكبراء ومائة الف نفس من الشعب وفدت للاشتراك في اكرام نابغة الوطن . ولكن لم يات احد من قبل الملكة ... ولما انتظمت الحفلة خرجوا بالجثة في جمع عظيم يتقدمه لافاييت القائد العام. وسارت باريز كلها وراء النعش تبكي الخطيب الذي جدد لفرنسا في ذلك الزمان عهد شيشرون وذيموستين ولما وصلوا به الى كنيسة سان اوستاش وانتهوا من اقامة الصلاة عليه وقف الراهب اليسوعي (سروتي) وابن الفقيد تابيناً بليغاً. وكان هذا الراهب من رجال الاكليروس الذين انضموا الى الثورة وقبلوا مبادئها الحرة وآراءها العصرية الجديدة ولذلك جُعل عضواً في المجلس النيابي . ولما اتى على آخر كلمة من تابينه اطلق ١٠ الاف جندي كانوا في الكنيسة بنادقهم اكراماً لتذكار الفقيد. فصاح اعضاء المجمع الوطني صيحة هائلة لانهم لم يكونوا يتوقعون ذلك وخيل للحاضرين ان الارض قد مادت وان سقف الكنيسة سيسقط عليهم . وقد تكسرت كل نوافذ الكنيسة وزجاجها فلم يبقَ بها لوح زجاج سليماً

وبعد الصلاة ساروا بالجثة الى كنيسة جنفياف (البانثيون) وكان مسيرهم اليها على نور المشاعل لان الظلام كان قد ارخى ستائره .

ولكن الظلام لم يهبط على العيون فقط بل هبط على النفوس ايضاً . ذلك لان وفاة ميرابو كانت خسارة ما بعدها خسارة . فقد ذهب بذهاب هذا الرجل العقل الذي كان يدير ازمة الحكم والسياسة . لقد ذهب اللجام الذي كان يكبح جماح الشعب والمهماز الذي كان يستحث انصار الملكية . وصارت بعده مركبة الدولة سائرة بلا دليل ولا مشير فلا تعلم اهي سائرة الى قمة النجاة او وهدة التهلكة

***

وكان وصول الحفلة الى البانثيون في منتصف الليل . وكان هذا الاحتفال جامعاً شعب باريز وكل ذي مقام فيها فكأنَّ باريز قامت كلها تشيع رجلها العظيم وتخفره . ولم يكن ينقص هولاء المشيعين الا رجل واحد

ومن هو هذا الرجل . هو السياسي بسيون

ولماذا تخلف السياسي بسيون عن حضور جنازة ميرابو . ذلك لان هذا الرجل عثر في زعمه على مراسلات كتبها ميرابو قبل موته والغرض منها مقاومة الثورة وايقاف سيرها

و بعد انقضاء ثلاث سنوات على هذا اليوم لما اصبحت البلاد في ازمة الكونفانسيون صنع هذا المجلس صنعاً غريباً • فانه بعد ان قتل الملك والملكة • و بعد ان سفك دماء الجيروندبين والكوردوليين والمونتانيار • و بعد ان قتل نفسه وسفك دماء اعضائه ولم يبقَ لديه احد من الاحياء لقتله — عمد الى قتل الاموات • فقرر بسرور وحشي ان المجمع الوطني اخطاء بدفن ميرابو بين اعاظم الرجال لان عقل الانسان مهما كان كبيرًا فانه لا يمحو سيئات الرشوة والفساد • يعني بذلك ان ميرابو كان يرتشي من البلاط لمقاومة الثورة

و بناء على ذلك وضع مجلس الكونفانسيون قرارًا آخر مقتضاه اخراج جثة ميرابو من البانثيون

وطبقاً لهذا القرار جاء يومئذ الى قبر ميرابو في كنيسة سنت جنفياف رجل من قبل المجلس وقراء على الميت صورة القرار الجديد الذي يقضي عليه بعدم الرقاد في مكان يرقد فيه فولتير و روسو وديكارت • ثم طلب من حارس الكنيسة ان يسلمه جثة ميرابو • فدفعها الحارس اليه فاخذها الرجل المبعوث من مجلس الكونفانسيون ودفنها في مكان يُدعى كلامار وهو مدفن المجرمين

و رغبةً في جعل هذا العقاب موازياً للاكرام الذي لقيه ميرابو يوم موته ودفنه لم يُخرج هذا الرجل الجثة من الكنيسة الا في الليل لكي لا يحتفل بها احد ولم يضع على القبر الذي دُفنت فيه شيئاً يُستدل به

ولكن رجلاً فضولياً مولعاً بالسؤال زار كلامار ذات يوم وسال عن المكان الذي دُفن فيه ميرابو • فاخذه احد الحفارين الى مكان في وسط المدفن ورفس الارض بقدمه وقال: ههنا دفناه • ثم رغبة منه في تاكيد كلامه اردف بقوله : نعم ههنا دفناه • ولقد كدتُ اسقط في الحفرة وانا حامل تابوته لشدة ثقل ذلك التابوت الرصاصي اللعين »

وكان ذلك الرجل السائل الكاتب نوديه

ولقد اخذني نوديه في ذات يوم الى ذلك المكان ورفس الارض بقدميه في موضع القبر وقال لي • ههنا دفنوه

وها قد مضت على ميرابو خمسون سنة وهو مدفون في مكان مجهول يمرُّ الناس فوقه ولا يعرفونه • افلا يجب اخراج جثته من تلك الارض الرجسة ودفنه في قبر يليق به • ور بما كان ميرابو غير اهل للرقاد في البانثيون ولكن اليس بين ارض البانثيون وتلك الارض

الرجسة وَسط يحق له ان يُدفن به · وكم من اناس غيره يرقدون الآن او سيرقدون في المستقبل في ارض شريفة مع انهم لا يستحقون الا الاراضي المخصصة بالمجرمين · فاليكِ يافرنسا اسوق الكلام · افيمي قبراً لميرابو ولا تنقشي عليـه غير اسمه ولا تضعي فوقه غير تمثاله ودعي للتاريخ الحكم عليه

الفصل السابع والعشرون

﴿ ما اشار به ميرابو ﴾

اما الملك والملكة فانهما كانا في اثناء هذه الحوادث يفكران في امور اخرى

وبيان ذلك انه قبل وفاة ميرابو بساعتين دخل الى قصر الملك رجل قادم من سفر بعيد وكان هذا الرجل الكونت دي شارني الذي ارسله الملك الى الجنرال بولييه ليدبر معه طريقة فراره

ولما علم الملك بوصول شارني سرّ به كل السرور واستدعاه اليه وساله عن مهمته فاجابه شارني ان الجنرال قد اتخذ كل المعدات اللازمة لحفظ سلامة جلالتكم ثم اطلعه على خطة السفر وعدد الجنود الذين عزم على تفريقهم في طريقه · فقال الملك وهل وجد حجة لارسال هولاء الجنود فانني اخشى ان يسيئوا الظنون بها · فاجاب نعم قد وجد الجنرال حجة لذلك وهي ان وزير الحرب سيرسل بعد حين مالاً جزيلاً الى جيش الجنرال بولييه فاذا سال الناس عن سبب قدوم الجنود اجابوهم انه لحماية المال المرسل من وزارة الحرب

فقال الملك وعلى ذكر المال اسالك ايها الكونت هل وصل الى المركيز دي بوليه المليون فرنك الذي ارسلته اليه · فاجاب شارني نعم يامولاي قد وصل المليون فرنك ولكن لا يخفى عن جلالتكم انه يفقد ٢٠ في المائة عند القطع · فقال الملك نعم اعرف ذلك ولكن هل استطاع المركيز قطعه بهذه القيمة على الاقل · فاجاب شارني بل انه قطعه باقل من ذلك لان خادماً اميناً لجلالتكم قد ابتاع من تلك الاوراق ما قيمته مائة الف فرنك من غير قطع · فقال الملك والباقي · قال اما الباقي فقد قُطع في بنك المسيو بركو وقد اعطى هذا البنك حوالة بالقيمة على بثمان وشركائه في فرنكفورت وهم يدفعون المال نقداً · فقال الملك حسن فاذكر لي الآن اسم ذلك الرجل الامين الذي خسر مائة الف فرنك لابتياع اوراقي · فقال شارني لا اقدر ان اذكر اسمه يامولاي لانه لم يهب تلك الهبة الا على

هذا الشرط . فقال الملك ولكن هل تعرفه انتَ . فاجاب نعم اعرفه يامولاي . فعلم الملك ان ذلك الرجل هو شارني نفسه فدنا الملك منه بعظمة ثم اخرج من اصبعه خاتماً من ذهب وقال له . لما دنا اجل ابي دنوتُ منه وقبلتُ يده التي كان قد بردها الموت ثم نزعتُ منها هذا الخاتم واخذته تذكاراً . وبناء عليه فانه عندي في مكان عظيم . ومع ذلك اسالك ان تاخذه وتهبه الى ذلك الرجل الكريم من قِبلي

فطفحت حينئذ عينا شارني بالدموع وضاق صدره من شدة تاثره فجثا على ركبته امام الملك ليتناول الخاتم منه

ولكن لم يكد شارني يجثو حتى فُتح الباب بغتة فالتفت الملك بغضب ليرى الداخل لان فتح الباب عليه بهذه الطريقة اهانة له اذا لم يكن هنالك امر ضروري يقتضي ذلك . ولما التفت الى الباب ابصر الملكة داخلة منه وهي صفراء الوجه وفي يدها ورقة صغيرة

اما الملكة فانها ما ابصرت شارني جاثياً امام الملك حتى تراجعت الى الوراء كانها مذعورة وقالت : مسيو دي شارني هنا

ذلك انها كانت تجهل قدوم الحبيب الذي كانت تقضي ايامها ولياليها بالتفكر في غيابه .

فنهض دي شارني حينئذ . ورغبة في تخفيف الم الملكة قال . نعم يامولاتي فقد قدمتُ الساعة وكنتُ على عزم الاستئذان من جلالته في التشرف بمقابلتك لارفع اليكِ واجبات التحية والاحترام

فذهب عند ذلك الاصفرار من وجه الملكة وحل محله شَفق لطيف . فمدت يديها الى شارني لتسلم عليه ولكنها لم تلبث ان اعادت احداهما الى قلبها لانه كان ينبض نبضاً شديداً

وكانت الورقة التي في يد الملكة قد سقطت منها ووقعت بعيداً فالتقطها شارني وجاء الملك بها فتناولها الملك وقرأها فوجد فيها هذه الكلمات « الهرب الهرب الهرب » وتحتها هذا التوقيع المبهم « ميرا ... » . فسال الملك الملكة ما معنى هذا فانني لم افهم شيئاً. فاجابت الملكة ان المسيو دي ميرابو قد توفي منذ عشر دقائق وقد كتب هذه الورقة قبل وفاته يشير بها علينا بالسفر

فقال الملك نعم نعم قد عزمت على السفر ايتها السيدة وقد اعددنا كل شيء فاذهب ايها الكونت واطلع الملكة على تفاصيل ذلك

فقالت الملكة للكونت بلهجة من فرغ صبره اتبعني ايها الكونت ولا تبطيء ثم خرجت تقصد غرفتها . فانحنى شارني باحترام امام الملك وخرج في اثرها

الفصل الثامن والعشرون

﴿ الحب بين المتاعب ﴾

ولما وصلت الملكة الى غرفتها رمت بنفسها على مقعد هناك واشارت الى شارني ان يغلق الباب وراءه . فاطاع شارني . ولكن الباب لم يُغلق حتى ارتفع صوت الملكة بالبكاء والزفرات

ذلك ان الملكة تركت التاج الملكي في تلك الساعة وذكرت انها امرأة

اما شارني فان بكاء الملكة من اجله اثار في نفسه بقية ما بقي فيها من الحب القديم

ولقد قلنا « بقية ما بقي فيها » لان حباً كالحب الذي كان يجده شارني في نفسه قبلاً لا تخمد ناره خموداً تاماً الا اذا انقلب بغضاً . وبناء عليه كان في نفسه حبان . حب قديم اثري للملكة وحب جديد لزوجته اندري . ولقد كان يحب اندري من كل قوى نفسه وكان يحب الملكة على سبيل الشفقة واحياء للتذكار القديم

وكان شارني واقفاً امام الملكة ينظر اليها وينتظر اوامرها وهي مستغرقة في البكاء وراسها بين يديها . ذلك انه مرت عليها ثمانية اشهر دون ان تسمع خبراً عنه او تعلم بمكان وجوده . وكانت تفتكر فيه في الليل والنهار ولا تجد مسرة في الحياة لغيابه . وبينما هي في هذا القلق الدائم واذا بها تراه في غرفة الملك بغتة دون ان تكون على موعد من لقائه . فثارت حينئذ كل قوى نفسها وتمثل لها ما عانته في حياتها من المتاعب فاستسلمت الى الضعف والبكاء وهو آخر واقوى ملجاء للنساء

وكانت تبكي لتفرج همها ولو لم تبك لخنقتها دموعها

وكانت تبكي بلا كلمة ولا اشارة . فهل كان بكاؤها من الحزن او من الفرح . ربما كان من الاثنين لان كل انفعال شديد يُترجم بالدموع اياً كان نوعه

ولما طال وقوف شارني امامها وهي تبكي دنا منها وفي نفسه من عواطف الحب اكثر مما فيها من عواطف الاحترام ثم اخذ احدى يديها فرفعها عن وجهها وقبلها وقال : مولاتي .

يسرني ان ابلغكِ انني منذ فارقتكِ لم افتأ عن الاشتغال بك ومن اجلك

فاجابت الملكة بلهفة . شارني شارني لقد مرَّ عليَّ زمن كنتَ فيه اقل اشتغالاً بي ولكنك كنتَ اكثر افتكارًا فيَّ . فليت هذا الزمن يعود

فقال شارني انَّ الملك ياسيدتي عهد اليَّ في الاشهر الاخيرة بمهمة في غاية الاهمية فكانت مهمتي توجب عليَّ السكوت التام الى ان افرغ منها ولذلك لم اقدر على الكتابة اليكِ . اما الآن فقد فرغت من هذه المهمة فاذني لي ياسيدتي ان اطلعك على نتيجتها

فنظرت الملكة حينئذٍ الى شارني نظرًا يفهم كل انسان معناه وقالت له . شارني شارني اما لديك حديث اهم من هذا الحديث الآن . ثم انها ضغطت على يده بين يديها

اما شارني فانه بقي صامتاً . وقد اجالت الملكة نظرها فيه في اثناء سكوته فلم تجد في ثيابه النظيفة المرتبة ولا في شعره الصقيل ما يدل على انه كان في سفر بعيد . فقام في نفسها حينئذ شك هائل . فانها ظنت ان الكونت قد عرج في طريقه على منزل زوجته الكونتس اندري وغير ملابس السفر فيها . ولذلك لم تلبث ان القت عليه بلهفة هذا السؤال . وهل كانت طريقك طويلة . فاجاب انني قطعت ٩٠ فرسخاً . فقالت الملكة عجباً ومع ذلك فاني لا ارى على ملابسك غبار السفر . فقال الكونت نعم ياسيدتي فقد خشيت ان ينبه قدومي الى القصر بملابس السفر ظنون الناس ولذلك غيرتها قبل وصولي الى القصر . فقالت بشيء من التهكم وعقرب الغيرة تلذع قلبها . نعم نعم لقد نسيتُ ان لك منزلاً في باريز . فاجفل شارني عند هذا الكلام لانه عرف غرض الملكة منه وقال كيف تقول الملكة ان لي منزلاً في باريز . فاجابت اليس المنزل الذي تسكنه الكونتس منزلك ايها الكونت

فلما قالت الملكة هذا القول همَّ شارني بان يستشيط غضباً منها ولكنه ذكر ان غضبه وهي في تلك الحالة يؤلمها اشد الم فاشفق عليها وقال . لقد ذكرتُ لك ياسيدتي قبل سفري من باريز ان منزل مدام دي شارني ليس بمنزلي . اما المكان الذي غيرت فيه ملابسي فهو منزل اخي الفيكونت ايزيدور دي شارني

فلما سمعت الملكة هذا القول ابرقت عيناها فرحاً وسرورًا ثم انها هبطت من عن المقعد على ركبتيها على الارض واخذت يد شارني ووضعتها على شفتيها . اما شارني فانه لم يكد يرى صنع الملكة حتى اسرع كالبرق الخاطف ومدَّ يده فانهضها واجلسها على المقعد وهو يقول . ما هذا الصنع يامولاتي

فاجابت الملكه بصوتها الناعم اللطيف · اريد ان اشكرك يا اوليفيه

فاغرورقت حينئذ عينا شارني بالدمع واجاب · وعلى اي شيء تشكرينني ياسيدتي

فقالت الملكة · تسالني على اي شيء اشكرك ؟ الا فاعلم انني منذ يوم سفرك لم القَ مسرة الا في هذه اللحظة التي قلتَ لي فيها ما قلتَ · ولا اجهل انني اقول الآن قولاً لا يجب ان يُقال ولكن ما الصنع بغيرة النساء فانها عاطفة هائلة · وهل تنسى تلك الايام التي كنتَ انت فيها غيوراً ايضاً · ولكن ما اعظم الفرق بين غيرة الرجال وغيرة النساء · واننا نحن النساء يحق لنا ان نحسدكم على غيرتكم ايها الرجال · فانتم اذا غرتم من رجل فانكم تبارزونه فيقتلكم او تقتلونه واما النساء فلاسلاح لهن غير البكاء · وكثيراً ما يكون هذا البكاء مضراً لا مفيداً اذ يكون سبباً في ابعاد القلب الذي نروم تقريبه · فهل فهمتَ الآن سبب شكري لك · وانني اكرر لك شكري واعدك بانني ما عدت ابكي · فانظر اليَّ

وفي الحقيقة ان الملكة تناولت منديلها فمسحت به دموعها ونظرت الى شارني تُظهر له الابتسام · ولكنه كان في ابتسامها شيء غريب ارتعدت له فرائص الكونت فقال لها · وهل يمكن ان تكوني تعذبتِ الى هذا الحد · فنظرت الملكة الى السماء وقالت شكراً لك يا الهي لانه شعر بشيء من عذابي ومتى شعر به كله فانه لا يعود قلبه يطاوعه على ترك حبي

فشعر شارني حينئذ انه نازل في احدور يستحيل عليه بعد ذلك الوقوف فيه فتمالك وطوى هذا الحديث قائلاً · والآن هل تسمح لي جلالتك بان اطلعها على تفاصيل المهمة التي سافرتُ من اجلها

فكانَّ الملكة انتبهت عند هذا السؤال الى نفسها وذكرت انها اذا كانت امرأة فهي ايضاً ملكة · وبما ان المرأة قد نالت ما كانت تريده فقد بقي ان تعلم الملكة ما تريد علمه · فالتفتت الى شارني وقالت له · ان الملكة مصغية اليك ايها الكونت

فاطلعها الكونت دي شارني حينئذ على سبب سفره لمقابلة المركيز دي بوليه وكيف انهما اعدا سبيل سفر الملك وامرته من باريز الى آخر تفاصيل هذه المسالة · ولما استوعبتها الملكة جيداً قالت لشارني · وهل يسرك ان تكون نجاتي على يدك ايها الكونت · فقال شارني انني ابذل نفسي في هذا السبيل ياسيدتي لانني اعتبر ذلك من واجباتي · فقالت الملكة بل كنتُ احب ان يكون ذلك لحبك لي لا لقيامك بواجباتك · فسكت دي شارني · واما الملكة فانها لبثت مبهوتة مفكرة · وبعد هنيهة التفتت الى شارني وقالت له · ولكن

فاعلم يا اوليفيه انني لا ارضى بان انجو على يدك الا على شرط واحد . فقال شارني وما هو . قالت انني احياناً لا املك زمام نفسي فاذا رمتُ ان اعمل عملاً ورايتُ في اثنائه ما لا تشتهي نفسي فانني لا اضمن انني استمر فيه . وانا اقول لك ذلك لتعلم الخطر مقدماً فتجتنبه

فلما سمع شارني ذلك انحنى قليلاً لانه كان قد فهم كلام الملكة ثم قال : انني اعدك ياسيدتي بانني لا ارى الكونتس دي شارني الا باذن منك

قال ذلك بجد لا مزيد عليه ثم انحنى ثانية وخرج دون ان ينتظر جواب الملكة

ولما اغلق شارني الباب وراءه اخذت الملكة بيديها تشدهما من شدة تاثرها . ثم قالت في نفسها . وددت ان يكون قد اقسم ان لا يراني الا باذن منها ويكون يحبني بقدر ما يحبها

الفصل التاسع والعشرون

﴿ النظر المزدوج ﴾

شروع الملك في الفرار

اما الامر الذي اقنع الملك بوجوب الفرار مع اسرته بعد ان كان متردداً فيه فهو حدوث عدة حوادث دلته على انه يكاد يكون اسيراً للامة مع عائلته

ومن هذه الحوادث ان المجمع الوطني اوجب على الكهنة الذين يدخلون قصر الملك للقيام بطقوس الاعتراف والقربان المقدس وخدمة القداس ان يكونوا من الكهنة الذين اقسموا يمين الامانة والطاعة للدستور الذي وضعه المجمع . فلما اقترب عيد الفصح خافت عمتا الملك من ان يمرّ العيد ولا تتناولان الاسرار المقدسة على يد كاهن غير مقسم يمين الامانة للدستور لان الاكليروس كان يعتبر الذين اقسموا منهم هذه اليمين خارجين عن الكنيسة الحقيقية ولذلك عزمتا على الفرار من باريز . فتزيتا بزي خادمتين وسافرتا من باريز الى خارج المملكة . فلما علم الشعب بذلك هاج وماج وصاح مارات انهما اخذتا عدة ملايين من الفرنكات وقال ديمولين انهما خطفتا ولي عهد الملك وسارتا به الى الخارج . ولما وصلتا الى ارناي لودوك القي القبض عليهما وحيل بينهما وبين السفر فاضطر الملك الى ان يكتب رسالة الى المجمع الوطني يطلب فيها منه الاذن لهما باتمام سيرهما . فاذن المجمع بذلك ولكنه اشترط ان يعين لجنة لوضع نظام للمهاجرين من المملكة . وقد وضعت اللجنة ذلك

النظام على ان ميرابو قبل وفاته قاومه بكل قواه حتى اسقطه والغاه

ولكن هذه الاهانة لم تكن شيئاً بالقياس الى الاهانة التالية التي وقع الملك فيها ٠ فانه لما انتشر في باريز خبر فرار عمتي الملك وهاج الشعب اسرع الى قصر الملك نحو مائة من نبلاء الفرنسويين وابلغوه انهم مستعدون للموت في سبيله ٠ فسر الملك بهذه المظاهرة ٠ ولكن لما انتشر خبرها خارج القصر حسب الناس ان انصار الملكية يعقدون مؤامرة سرية فاسرع الجنرال لافاييت القائد العام الى التويلري ودخله عنوة بجنوده وهم مجردون اسلحتهم ثم قبض على جميع اولئك النبلاء وفتشهم فوجد في ثيابهم كثيراً من المسدسات والخناجر ولذلك دعوهم « نبلاء الخناجر »

وفضلاً عن ذلك فقد جرت عادة الملك بان يذهب في كل عام الى سان كلود قرب باريز ٠ ففي ذات يوم امر باعداد المركبات للذهاب اليها ثم نزل من قصره ليركب مركبته مع الملكة واذا به يرى نحو ١٥٠٠ شخص يحيطون بالمركبة ويمسكون برؤوس الخيل منعاً لها من السير ٠ ثم انتشر الخبر وقرعت الاجراس ايذاناً بان الوطن في خطر لان الملك عازم على الفرار من باريز ٠ ولذلك اضطر الملك الى العدول عن نزهته

ويظهر من ذلك كله امران ٠ الاول ان الشعب كان يخشى خروج الملك من فرنسا للاستنجاد باوربا على امته وشعبه ورغبة المجمع الوطني وانصاره في ان لا يخرج الملك قيد فتر عن الدستور الذي سنه المجمع ووضع فيه الامة فوق الملك ٠ والثاني ان الملك صار يرى وجوده في باريز ثقيلاً عليه لاعتباره نفسه اسيراً فيها فضلاً عن ضغط الدستور على ارادته ٠ ولذلك عزم على الفرار بعد ان كان متردداً فيه واظهر هذا العزم للملكة بجلاء تام حين مقابلتها لشارني عنده

وكان الجنرال بوليه والملك قد جعلا موعد الفرار في ٢٠ يونيو من ذلك العام

وفي صبيحة اليوم السابق لهذا اليوم كان الدكتور جيلبار في منزله وفي يده ورقة متعلقة بمشروع الفرار وهو يقرأها ويعيد قراءتها من حين الى حين ٠ وكان يروح ويجيء في المنزل بهيئة رجل ينتظر رجلاً آخر ويطل من النافذة على الشارع من دقيقة الى اخرى ٠ وبعد حين وقفت مركبة امام باب منزله فتنفس الدكتور الصعداء وقال لخادمه افتح للكونت دي شارني في الحال فانني انتظره ٠ فذهب الخادم ثم عاد بعد برهة وبدلاً من ان يعلن قدوم الكونت دي شارني اعلن قدوم الكونت كاليوسترو

فلما سمع الدكتور هذا الاسم ارتعدت فرائصه مع ثبات جاشه لانه لم يكن ينتظره ٠

فطوى بسرعة الورقة التي كانت بيده ودسها في جيبه ثم لبث ينتظر ذلك الرجل العجيب . فدخل عليه كاليوسترو بعد حين وكانه قد لمح من السلم الورقة التي كانت في يد الدكتور جيلبار قبل ان يضعها في جيبه ولذلك قال له : لماذا اخفيتَ هذه الورقة ايها الدكتور

فاجاب الدكتور هذه ورقة لا يهمك امرها

فضحك كاليوستر وقال بل يهمني امرها كما يهمك. ولكن قبل ذلك اتريد ان اخبرك عن مضمونها . فنظر اليه الدكتور باستغراب وقال : هل عدنا ايها الاستاذ الى مسائل النبوءة وعلم الغيب . فضحك كاليوسترو وقال : ان هذه الورقة تذكرة للملك واسرته لنسافروا بها من فرنسا متنكرين

فلما سمع الدكتور جيلبار هذا الكلام شعر بتاثير غريب في داخله وخيل له انه في حلم لا في يقظة . وبعد ان سكت هنيهة يفكر بماذا عساه ان يجاوب قال لمخاطبه

اصغِ اليَّ يامعلمي . نعم ان هذه الورقة كما ذكرتَ وذلك يدلني على انك مطلع على هذا السرّ فلا يجدي الانكار نفعاً . وبناء عليه فان اطلاعك هذا يوجب علينا واحداً من امرين . فاما اننا نعدل عن مشروعنا واما انك تعدنا بالتزام السكوت وكتمان هذا السر

فقال كاليوسترو وان لم اعدكم بالسكوت والكتمان . فاجاب الدكتور اذاً لم تعدني الآن بذلك وعداً قطعياً فانني انذر اصحاب هذا المشروع بالعدول عنه في الحال

فالتفت كاليوسترو حينئذ الى الدكتور جيلبار وقال له : بل لا تنذرهم بذلك ايها الدكتور فانني ما جئتك الا لابلغك انني عارف بمشروعك وانني لا اتداخل فيه ابداً. وان رمتَ زيادة في الايضاح قلت لك ان من مصلحتنا ان يخرج الملك من فرنسا لنقيم الجمهورية بعد خروجه ولذلك يجب علينا تسهيل هذا الخروج له لا اقامة العثرات في سبيله . وبناء عليه اعدك ايها الدكتور انني اكتم خبر سفره كل الكتمان ولا اتعرض له بسوء

فارتاح الدكتور الى وعد كاليوسترو ثم تحدثا مدة وبعد ذلك عاد الرجل الهائل من حيث اتى وقد ترك الدكتور مدهوشاً من مقدرته على استطلاع كل الخفايا والوقوف على جميع الاسرار

الفصل الثلاثون

﴿ فرار الملك ﴾

(والقبض عليه)

وكان الملك قد استعد اتم استعداد للسفر وكان موعد الفرار في ٢٠ يونيو من ذلك العام كما تقدم

ولما جاء هذا اليوم غيرت الملكة زيها و بدلت ايضاً زي ولديها وخرجت في السر من قصر التويلري مع الملك لبركبا المركبة التي كانت تنتظرها في مكان قرب القصر

وكان سفر الملك والملكة من طريق مونمدي كما كان الاتفاق وكان المركيز دي بوليه قد بعث بجنوده الى المراكز التي على طريق السفر لوقاية الملك من الطوارىء وسار جورج دي شارني زوج كاترين امام المركبة يمهد لها طريقها ولحق بها اخوه الكونت دي شارني حبيب الملكة لحراستها

وكانت الملكة مسرورة في هذا اليوم لسببين . الاول انها تحققت انها ستخلص من تهديد الباريزيين واضطهادهم كما كانت تعتقد والثاني انها كانت تشعر بان صديقها شارني قريب منها وانها تحت حمايته وحراسته

اما الملك فانه كان سكوتاً لا يتكلم

وقبل ان فارق الملك قصر التويلري ترك فيه منشوراً الى الامة الفرنسوية

وظلت المركبة سائرة بركابها وهم يضربون اخماساً لاسداس في ماذا يكون مصير هذا السفر حتى وصلت الى المحطة الاولى فغيرت الخيل واستانفت السير . فاطمأن بال الملك والملكة قليلاً لانه قد مر عليهما مدة دون ان يتعرض لمركبتهما احد . وكانت هذه المركبة مقفلة وهما يشاهدان من داخلها الناس الذين كانوا يمرون بها دون ان يدروا بانها تضم الملك والملكة وولديهما . وكانا ايضاً يشاهدان الجنود التي بعثها المركيز دي بوليه لحراسة المركبة من بعيد . اما الكونت دي شارني فانه كان على جواده يسير وراء المركبة في مسافة بعيدة ويمر بعدها في الاماكن التي تمر بها ليسمع ما يقوله الناس عنها

وهكذا مرت المركبة في عدة محطات دون ان يلتفت احد اليها او يدري بركابها . ولكنها لما وصلت الى محطة قريبة من فارين خطر للملك ان يبرز رأسه من نافذتها ليشاهد

المكان والسكان فمن سوء حظه وقع نظره على رجل كان قد ذهب الى باريز وشاهد الملك فيها . فلما رأى هذا الرجل الملك دهش وقال : هذا هو الملك . فاسرع الملك الى الرجوع عن نافذة المركبة . ثم سارت المركبة في سبيلها وقدم الكونت دي شارني على اثرها فسمع الناس يلهجون بما شاهده الرجل الذي تقدم ذكره . ثم انتهي بهم هذا الحديث الى ارسالهم فارساً وراء المركبة لينبيء محطة فارين بوجوب ايقاف تلك المركبة وفحص جواز السفر الذي مع ركابها لان بعض السكان يزعم ان الملك قد فرّ فيها باسرته يقصد الخروج من فرنسا

فلما سمع الكونت دي شارني هذا الكلام ورأى الفارس قد امتطى جواده وسار في اثر المركبة طار صوابه وتحقق ان الخطر عظيم . ولكنه لم يلبث ان عاد اليه رشده فرأى انه اذا قتل ذلك الفارس فانه بذلك يمنعه من اطلاع المحطة التالية على هذا الامر و بذلك تنجو المركبة . و بناء عليه ركب شارني جواده وسار في اثر الفارس المذكور كانه البرق الخاطف

وهكذا كان على طريق (فارين) مركبة تعدو وهي تطلب الخلاص من خطر بان لها . وفارس يعدو وراءها يطلبها . وفارس آخر يعدو وراء هذا الفارس ليقتله و يمنعه من الوصول اليها

وظلّ الفارسان يعدوان بسرعة البرق حتى كلّ جوادهما . ولكن جواد دي شارني كان اكرم من جواد خصمه ولذلك ربح بعض المسافة واستطاع الدنو منه . اما الفارس فانه لما شاهد فارساً آخر يعدو وراءه تحقق انه يطارده من اجل المهمة التي سار من اجلها فازداد استحثاثاً لجواده ليفر منه . فكان جواده يعدو بكل قواه وجواد دي شارني يعدو بكل قواه ايضاً . ولكن المسافة بينهما ظلت كما هي فلا جواد دي شارني لحق بالجواد الثاني ولا الجواد الثاني استطاع ان يتوارى عنه . فلما راى ذلك صاحب الجواد الثاني ترك الطريق المطروقة ومال الى غابة هناك يقصد اختصار المسافة منها . فسار دي شارني في اثره بين اشجار تلك الغابة . و بعد حين صار دي شارني على مسافة مرمى الرصاص منه فتنفس الصعداء لانه تحقق انه قد ادرك امنيته . فمد يده الى بيت السلاح الذي كان في مقدمة سرج الجواد وهو يقول في نفسه لقد قتلت هذا العدو وانقذت الملك والملكية . ثم تناول المسدس بيده وصو به الى خصمه واطلقه عليه وقلبه يرقص فرحاً وجزعاً

وكان قلبه فرحاً لانه سيخدم الملكية اكبر خدمة وجزعاً لانه يتعمد قتل نفس بشرية

ولكن من سوء حظ الملك والملكية ان ذلك المسدس كان فارغاً من الرصاص لان دي شارني كان قد نسي حشوه · فياالخيبة الامل وسقوط الرجاء

وهكذا استطاع ذلك الفارس الوصول الى محطة فارين وابلاغ ذلك الامر الى حكومتها المحلية

فلما انتشر الخبر بين السكان خرجوا جميعاً لمشاهدة هذا الامر الغريب · ولما قدمت المركبة اوقفها الحاكم وطلب جواز السفر من الرجل الذي فيها فقدم له الملك الجواز الذي معه باسم مستعار لا حقيقة له · ثم انتهى الامر بمعرفة السكان الملك وايقافه عن المسير مع اسرته · فكان لذلك دوي عظيم في باريز وفرنسا والدنيا كلها

ولما ذاع الخبر بايقاف الملك في وارين تجمهر الشعر وحدث شغب عظيم · وقد تقدم الكلام ان الفيكونت ايزيدور دي شارني زوج كاترين كان في معية الملك · فبينما كان في وسط الجمع امام المكان الذي نزل الملك فيه عرف الشعب انه من ضباط الملك ورجاله · فمدت يدٌ واطلقت عليه رصاصة فاصابته في صدره · فصاح ايزيدور حينئذ : مسكينة انت يا كاترين · يريد بذلك انها قد اصبحت بعده ارملة بلا زوج ولا نصير · وبعد بضع دقائق فارق هذا الشاب الحياة في سبيل الملك كما كان مصير شقيقه جورج الذي قُتل في فرساليا على ما تقدم

ولما درى المجمع الوطني بايقاف الملك في فارين وانتشر الخبر في باريز هاج الشعب وماج كالبحر الزاخر وقرر المجمع ارسال بعض اعضائه لمرافقة الملك في عودته الى عاصمته · وكان ذلك اليوم يوماً مشهوداً في فرنسا كلها · وقد قرر المجمع الوطني ايضاً الغاء سلطة الملك وايقافه عن الملكية وقتياً لبينما يقسم يمين الامانة للدستور · ولم يناد المجمع بخلع الملك رسمياً لانه رغبة في المسالمة اعتبر الملك مخطوفاً لا فارّاً والقى تبعة خطفه على المركيز دي بوليه وضباط حرسه · وحين عودة الملك الى باريز عاد اليها في مركبة جلس فيها بعض اعضاء المجمع الوطني الذين ذهبوا لاستقباله واعادته الى عاصمته · فكان ذلك رمزاً لطيفاً الى تغلب الشعب على السلطة الملكية واخضاعها اياها لان اولئك الاعضاء كانوا من ابناء الشعب لا من ابناء النبلاء

الفصل الواحد والثلاثون

﴿ واقعة فالمي المشهورة ﴾

وفي ١٣ سبتمبر من ذلك العام اقسم الملك بيمين الامانة للدستور وعاد الشعب الى حبه واكرامه · ولكن الملكة كانت موقنة ان خلاص الاسرة المالكة لا يكون الا على يد اوربا وقد كانت تكتب ذلك الى اخصائها · وفي ٢٠ ابريل من عام ١٧٩٢ وقعت الحرب بين النمسا وفرنسا وكانت الملكة تتمنى في نفسها انتصار النمسا على فرنسا ويقال ان الملك ارسل يومئذ الى برلين والى فيينا بيان الخطط العسكرية التي وضعها الجيش الفرنسوي لهذه الحرب · ولما انتصر الجيش الالماني على الجيش الفرنسوي في المعركة الاولى قيل للملك والملكة ان يقصدا كومبيين فكان جواب الملكة ان الجيش الالماني وضع نصب عينيه ان ياتي وينقذنا في باريز نفسها »

وكان المجمع الوطني قد انحلّ وحلّ محله مجمع يدعى « المجمع التشريعي » وقد انعقد بالانتخاب العام · فظنت الملكة ان اعضاء هذا المجمع سيكونون اضعف من اعضاء المجمع الوطني لانهم كانوا حديثي السن وكان اغلبهم من الاقاليم ولم يكن بينهم احد من اعضاء المجمع السابق · اما مشيرو الملكة فابلغوها ان هولاء الشبان القادمين من الاقاليم سيكونون اشد وطأة من اسلافهم الشيوخ المطبوعين على التأني · وفي اثناء ذلك كان الملك مستمرًا على مخابرة الاعداء الذين كانت تحاربهم دولته · وكان معتمدًا على ستة آلاف من انصاره ومريديه لتفريق شمل اعضاء المجمع التشريعي وتمزيق رجال الثورة كل ممزق · ولكنه كان يحسب هذا الحساب وهو يظن ان النصر سيكون حليف الجيش الالماني والنمساوي · ولكن ما كل ما يتمنى المرء يدركه · والرياح قد تجري بما لا تشتهي السفن

وبيان ذلك بالاختصار ان باريز قامت قومة واحدة لدفع العدو الخارجي القادم بخيله ورجله لدوس ارادة الامة في ملكها · فقد أُعلن فيها ان الوطن في خطر ولذلك سارع الى الرايات والجندية كل شاب ورجل يستطيع حمل السلاح · وقد انخرط في سلك الجيش الوف من الخياطين والحلاقين والحمالين وكل اصحاب الحرف · فلما سمع بذلك جيش العدو ضحك ضحكاً شديدًا من جيش يكون رجاله كهولاء الرجال · ولكنه لم يكن يدري ان فرنسا نفسها قد قامت على قدم وساق في اشخاص هؤلاء الخياطين والحلاقين والحمالين · لم يكن

يدري ان الروح الفرنسوية قد آلت على نفسها يومئذ ان تنتصر وتدفع العدو المغير على بلادها او ان تموت موت الابطال تحت سنابك الخيل و بين حراب الرجال. و يومئذ وضع روجه دي ليسل النشيد الوطني الفرنسوي المعروف الذي لا يزال النشيد الفرنسوي الرسمي الى هذه الايام · والتقى ذلك الجيش جيش الخياطين والحلاقين والحمالين بالجيش الالماني العظيم الكامل العدد والعدد في اكمة تُدعى اكمة فالمي · وكان الجنرال ديموريه الفرنسوي يقود الجيش الفرنسوي وكان هذا الجيش نازلاً في قمة الاكمة والجيش الالماني في سفحها يبغي المرور ولا مقدرة له على ذلك اذا لم يدحر الجيش الفرنسوي و يزحزحه عن مكانه ·

وكان مستقبل فرنسا بل مستقبل العالم كله متوقفاً على هذه المعركة · وكانت المدافع الالمانية تصب كراتها على الجيش الفرنسوي في الاكمة وهذا الجيش واقف في مكانه ينتظر اوامر قواده · وبعد حين اصابت احدى القنابل الالمانية صندوقاً كبيراً للبارود فانفجر الصندوق وكان له دوي شديد اضطرب له الجيش الفرنسوي · فلما راى القائد الالماني ان الاضطراب قد وقع في جيش خصمه تحقق النصر فامر جنوده المدربة بالهجوم في الحال لتسلق الاكمة وسحق اعدائهم فيها

فلم يفت القائد الفرنسوي ما قصده القائد الالماني · فترك ذلك القائد الجنود الالمانية تتقدم دون ان يامر باطلاق مدفع او بندقية · وكان زحف تلك الجنود هائلاً · فانها كانت اقدر جنود اوربا · وقد كان زحفها الى شبان لم يروا نار الحرب ولم يشهدوا معركة قط · الى خياطين وحلاقين وحمالين كما تقدم · ولكن لما صارت هذه الجنود المدربة على مقربة من الجيش الفرنسوي تقدم القائد الفرنسوي جيشه ثم تناول قبعته فوضعها على راس سيفه وصاح باعلى صوته « لتحيَ الامة ايها الجنود » ثم هجم

فاجابه جيشه كله « لتحيَ الامة » ثم هجم وراءه ·

فهل رأيتَ الصواعق حين انقضاضها · هل رايت التيار كيف يجرف ما يعترضه في سبيله · هل رايت الامواج المائلة كيف تتلاعب بزوارق تكون على سطحها : هكذا كانت الجنود الالمانية المدربة بازاء ذلك الجيش الذي تالف من ارباب الحرف والمهن · ولقد كان صراخ الجيش الفرنسوي « لتحيَ الامة » بمثابة صراخ امة لا تريد ان تموت وتدافع عن شرفها وحياتها الى آخر نسمة من حياتها · وبناء على ذلك لم يمضِ نصف ساعة حتى انكسر الجيش الالماني اشد انكسار ووصل نبأ انتصار الجنود الفرنسوية الى باريز فبكى الباريزيون من فرحهم واقاموا في العاصمة احتفالات عظيمة

الفصل الثاني والثلاثون

﴿ سجن الملك ﴾

اما البلاط الفرنسوي والملوك في اوربا فانهم دهشوا واي دهشة لهذا الانتصار لانه لم يخطرلهم في بال . واما المجمع التشريعي فقد تشدد عزمه وقوي صوته فخطر له يومئذ ايقاف سلطة الملك مرة ثانية . على انه لولا هذا الانتصار وثقة المجمع بقوة جيشه لما اقدم المجمع على ذلك لخوفه من مؤامرات الملكيين في الداخل والخارج . وبناء على ذلك امر هذا المجمع بايقاف سلطة الملك وقتياً لينفي عنه ما اتهم به من مخابرة اعداء الدولة . فاخذ الملك والاسرة المالكة اولاً من قصره الى قصر لوكسمبرج ثم نُقل من هذا القصر الى التامبل فكان هذا المكان بمثابة سجن له ولاسرته . ولكن لما قام مجمع الكونفاسيون بعد المجمع التشريعي قرر اعضاؤه خلع الملك خلعاً نهائياً في ٢١ سبتمبر (سنة ١٨٩٢) ونادى بقيام الجمهورية في اليوم التالي

فكان لهذا الامر دوي شديد في فرنسا واوربا كلها . وكانت النمسا والمانيا تحرقان الارم على فرنسا وتتمنيان سحقها لانقاذ الملك والاسرة من مخالبها . اما فرنسا فانها كانت ساهرة اشد سهر على ملكها واسرته لمعرفتها انه اذا استطاع الفرار عاد اليها محارباً فتقع الحكومة الفرنسوية بين نارين نار حرب خارجية مع الدول ونار حرب اهلية في داخل بلادها . وكان لملوك اوربا حساب آخر وهو انهم ذعروا اشد ذعر من خلع الملك واقامة الجمهورية لخوفهم على عروشهم وحذرهم من ان تسري عدوى الجمهورية الى شعوبهم فيصنعوا بهم ما صنعه الشعب الفرنسوي بحكامه ولذلك اتحد الجميع لمحاربة الحرية التي انبثق فجرها في باريز . ولكن يظهر ان الله سبحانه وتعالى قد كره اطفاء ذلك النور العظيم وجعل الكلمة النافذة والسلطة العليا للشعوب لا للملوك . واذا كان الملوك قد وقفوا بعد ذلك في اوربا عند حدودهم وصاروا يعتبرون الشعوب ابناء لهم لا عبيداً وانعاماً سائمة فمعظم الفضل في ذلك راجع الى الثورة الفرنسوية

وقد كان سجن الملك لويس السادس عشر في بدء الامر مع اسرته فكان يرى الملكة وولديه واخته في كل يوم . اما الملكة فلا تسل عن حالتها وهي في السجن فانها كانت كلبوة في قفص من حديد . وكان حبيبها دي شارني قد قتل في اثناء هجوم الشعب على قصرها

لاخراجها منه ولذلك كان يأسها مزدوجاً . وان كل من بين جنبيه قلب حساس يشعر بمصائب البشر وان اخطأوا في حياتهم وحادوا عن الصواب في اعمالهم لا يسعه الا ان يتألم مع هذه الملكة والام والزوجة التي جنت على نفسها هذه الجناية وهي لا تدري بها

وكان الملك يقيم في الطبقة الاولى من التامبل والملكة وولداها في الطبقة الثانية . وكان الضباط ينامون امام الغرف لحراستهم في الليل . وكان القائد سانتير يفد في كل يوم الى التامبل مع اركان حربه لزيارة المسجونين وتفتيش المكان . وكانت الحكومة تنفق على مائدة الملك وحدها في كل شهر اكثر من ٥٠٠ جنيه

وكان انصار الملك يعقدون المؤامرات السرية لخطفه مع اسرته من السجن فلما ظهرت آثار تلك المؤامرات ازدادت الحكومة تشديداً وسهراً على سجنائها ومنعت عنهم الحبر والورق وحالت بينهم وبين كل داخل وخارج فانقطعت اخبار العالم عن الملك وانقطعت اخباره عن العالم

ثم شرعت حكومة الكونفانسيون بالاهتمام بمحاكمة الملك . وكان لرجالها رأيان . الراي الاول الاكتفاء بخلع الملك ونفيه من فرنسا والثاني وجوب محاكمته والحكم عليه بالاعدام

وكان انصار الراي الاول يقولون : « ان الامة قررت على يد نوابها في الدستور الذي وضعته في عام ١٧٩١ ان شخص الملك مقدس فهو غير مسئول عن شيء من الاشياء ولا يجوز ان يمس بشيء . فليس للحكومة ان تسن الآن قانوناً جديداً ينقض ذلك القانون القديم . وقد جاء في هذا القانون القديم ان الملك اذا خان الامة وعمل على محاربتها مع اعدائها فجزاؤه الخلع من الملك . فاكتفوا اذاً بخلع الملك . واذكروا ان وزراءه هم الذين يجب ان تقع عليهم كل مسئولية »

واما انصار الرأي الثاني فانهم كانو يقولون : « اذا كان شخص الملك مقدساً وغير مسئول فهو مقدس وغير مسئول بالنظر الى دوائر الحكومة ومجالسها لا بالنظر الى الامة نفسها . فهو مسئول لدى الامة لان الامة فوقه . ولا يجوز للملك ان يتمسك بالدستور فيقول عاملوني بموجب الاتفاق الذي عقد بيننا من الاكتفاء بالخلع فان الرجل الذي صرف عمره في مقاومة الدستور في السر ونقض احكامه لايجوز له ان يتمسك به و يرجع اليه . وان قيل ان المسئولية واقعة على الوزراء دون سواهم فهذا خطاء محض اذ كيف يجوز ايقاع المسئولية على اناس لم يعلموا بالحوادث التي جرت لكتمان الملك اخبارها عنهم . اما الخلع فهو عقاب غير كاف لان كل قوانين الامم تحكم بالاعدام على كل خائن لدولته وامته . واما

سؤالهم عن المحكمة التي يجب ان يحاكم الملك لديها فهي محكمة الامة اي النواب الذين اختارتهم الامة ليمثلوها · واما قولهم انه لا يجوز ان تكون الامة خصماً وحكماً في حين واحد فهو قول غريب واذا كان ذلك غير جائز فهل نفوض اذاً هذه المحاكمة الى الدول الاجنبية »

الفصل الثالث والثلاثون

﴿ المحاكمة ﴾

وفي ٣ دسمبر من ذلك العام جعل روبسبيير مجمع الكونفانسيون يقرر هذا القرار « يجب محاكمة الملك وينبغي ان تكون محاكمته في مجلس الكونفانسيون » وكانت الحكومة قد وجدت في الخزانة السرية التي تقدم تفصيل انشائها في القصر كثيراً من الاوراق السرية التي لا اهمية لها · وذلك لان الحكومة لم تعثر على هذه الخزانة الا بعد ان اخذ منها البلاط كل الاوراق المهمة كما ذكرت مدام كمبان في تاريخ حياتها · وقد اتهم كثيرون من المتطرفين الوزير رولان نفسه بانه اخفى بعضاً من الاوراق المهمة التي وجدت فيها · وقد دفع رولان هذه الاوراق الى الكونفانسيون في ٢٠ نوفمبر

وفي ١١ دسمبر ذهب بسيون الى التامبل وابلغ الملك قرار الكونفاسيون القاضي بمحاكمته مع صورة الاتهام · وفي اليوم التالي حضر الملك الى قاعة المحاكمة · وهكذا وقف الملك لدى شعبه في موقف المجرمين

وقد جلس الملك في قاعة الكونفانسيون على كرسي امام الاعضاء وكان الرئيس يلقي عليه الاسئلة فيجاوب بكل بساطة واتضاع · وكان احياناً ينكر ما يعزى اليه واحياناً يلقي تبعته على وزرائه وأحياناً يقول ان ما صنعه كان من حقه ويستند في ذلك الى مواد الدستور التي كان قد حفظها كلها · ولما سُئل عن الخزانة الحديدية السرية التي تقدم ذكرها اجاب انه لم يكن يعرف ما كان مخبوءاً فيها · قال الجمهوريون : وهذا كذب صريح · وقد دافع عن الملك مالرب وديسيز · وفي هذه الجلسة خاطب ديسيز اعضاء الكونفانسيون بهذه الكلمة المشهورة في اللغة الفرنسوية وهي « انني اطلب عندكم حكماً فلا اجد الا خصماً » وقد كان الدفاع عن الملك مؤثراً · وقد دافع هو نفسه عن نفسه بخطاب وجيز يدل على بساطته · ولم يكن في كلام الملك ولا في وقفته شيء من العظمة الملكية · لان لويس السادس عشر كان مشهوراً

بالبساطة واللطف وترك الامور لاقدارها كما عرفه القراء

وكان هذه البساطة وهذا التسليم قد اثرا في القضاة ولذلك وقف سن جوست احد الغلاة في جلسة اخرى وطعن على الملك بقوله انه ظالم يظهر اللين وقد اشبع الامة ظلماً واستبداداً بهذا اللين وهذه البساطة . وكان التردد كثيراً بين الاعضاء ولذلك اقترح بعضهم ان يُسأل الشعب باقتراح عام عن رايه في هذه القضية الكبرى . ولكن الساسة تحققوا ان هذا السؤال اذا القي على الشعب جرّ وراءه حرباً اهلية ولذلك عدلوا عنه . وبعد ذلك شرع المجمع باخذ آراء اعضائه في الاسئلة الثلاثة التي كانت في هذه القضية وهي

(١) « هل ان لويس كابت جنى على الحرية العمومية وسلامة الدولة الفرنسوية بالتآمر مع اعدائها

(٢) « ماذا يكون جزاء لويس

(٣) « هل يجب تنفيذ الحكم الذي يصدر على لويس ام ايقاف تنفيذه

وكان من الواجب على الاعضاء ان يبدوا آراءهم من غير تستر ولا كتمان وهو ما يسمونه التصويت جهراً . وقد قال كثيرون من المؤرخين انه لو كان التصويت بالاقتراع السري لما كان قد حُكم على الملك بما حكم به عليه

فلما القي السؤال الاول على الاعضاء انقسمت الاصوات كما ياتي

٨	اعضاء كانوا غائبين بسبب المرض
٢٠	عضواً غابوا لاشغال الحكومة
٢٧	لم تحصَ اصواتهم
٣	امتنعوا من التصويت
٦٩١	اجابوا بالايجاب

ثم سئل الاعضاء هل يجب ان يُعرض حكم المجمع على الشعب ليوافقوا عليه . فاجاب ٤٢٤ عضواً جواباً سلبياً و٢٨٧ عضواً جواباً ايجابياً

ثم القي عليهم السؤال الثاني فكانت الاصوات كما يلي

٢	صوتان قضيا على الملك بالسجن
٢٨٦	صوتاً قضت بالنفي بعد عقد الصلح مع اوربا او قبله
٣٦١	صوتاً قضت بالاعدام

٢٦ صوتاً قضت بالاعدام مع ايقاف التنفيذ

وفي ١٩ يناير القي عليهم السؤال الثالث فاجاب ٣٨٠ عضواً بتنفيذ الحكم عاجلاً واجاب ٣٤٦ عضواً بايقاف تنفيذه . وهكذا حكم على ذلك الملك المسكين بالاعدام وتنفيذ هذا الحكم فيه عاجلاً مع انه لم يجنِ نصف ما جناه اسلافه. فجاء ذلك طبقاً للمثل الذي كان يتمثل به وهو : الآباء ياكلون الحصرم والابناء يضرسون

الفصل الرابع والثلاثون

﴿ الاعدام ﴾

وكان الحكم على الملك في ١٧ يناير وقد قُرر انفاذه في ٢١ منه

وكان المنتظر ان الحزب الملكي يقوم بعد هذا الحكم بعمل عظيم يقصد به انقاذ الملك قبل اعدامه . الا انه لم يعمل شيئاً تقريباً . وكان الملك يتوقع هذه المداخلة وقد بقي هذا الامل في نفسه حتى وضعت سكين الكليوتين على عنقه . ولذلك كانت حكومة الكومون تبذل قصارى جهدها في مراقبته وحراسته

وفي ٢٠ يناير قدم الى التامبل سجن الملك وزير العدلية المسيو كارات وقائد الجند سانتير وغيرهم ليقرأوا على الملك حكم المجلس . فلما قرأوه عليه سطر الملك ورقة طلب فيها اربعة امور . (١) ان يُفسح في اجله ثلاثة ايام ليستعد للموت . (٢) ان يؤذن للملكة وولديها بالخروج من فرنسا . (٣) الاذن له بالاجتماع بزوجته وولديه قبل اعدامه (٤) ان يُستدعى له كاهن من الكهنة الذين لم يقسموا يمين الامانة للحكومة لان الذين اقسموا هذه اليمين كانوا محسوبين خارجين عن الكنيسة تقريباً

اما الامر الاول والثاني فقد رفضتها الحكومة ولكنها اجابته الى الثالث والرابع . فاستدعى وزير العدلية كاهناً اجنبياً يُدعى ادجورث دي فريمون وجاء به في مركبته في الساعة السادسة مساء . فخلا الملك بهذا الكاهن ولبث يحادثه ساعتين عن شؤون الكهنة والديانة . وفي الساعة الثامنة اجتمع بالملكة وولديها واخته فكان اجتماعاً مؤثراً تدمى له القلوب . وقد كان يومئذ محظوراً عليه هذا الاجتماع لان الحكومة فصلته عن اسرته بعد ما ظهر لها من مؤامرات الملكيين لانقاذه وايصال الاخبار اليه

اما الملكة المسكينة فانها وقعت في يأس لا يوصف لما عرفت بذلك الامر الهائل .

واما ابنته فانها اغمي عليها بين يديه ٠ ولبث الجميع يبكون و يتعانقون بلهفة و يأس يقصر القلم عن وصفها ٠ فما اغرب تصاريف الزمن واحكامه ٠ ان اكبر المصائب البشرية دخلت الى منزل اكبر رجل في قومه ٠ الى منزل ملك كان يظن بيته في مامن منهـا ٠ فصار هذا الملك و زوجته واولاده يحسدون في تلك الساعة اصغر الصعاليك الذين يعيشون في اكواخهم الحقيرة في تلك البلاد الواسعة التي كانوا يسمونها مملكتهم الجميلة

ولم تفارق الملكة الملك حتى وعدها وعداً باتاً بانه يقابلها مرة ثانية قبل ان يُساق الى الاعدام ٠ وبعد مفارقتها خلا الملك بالكاهن مرة ثانية وجلس يحادثه الى منتصف الليل٠ وبعد منتصف الليل قصد فراشه ونام بعد ان اوصى خادمه ان يوقظه في الساعة الخامسة صباحاً اي قبل الميعاد المعين للذهاب الى ساحة الاعدام ٠ وكان غرضه من ذلك حضور قداس استاذن الكومون في اقامته فاذنت له ٠وقدقام بهذا القداس الكاهن الذي تقدم ذكره

وفي مساء ذلك اليوم (٢٠ يناير) قُتل في باريز النائب دي سان فرجو وكان من الاعضاء الذين قرروا قتل الملك ٠ فظنت الحكومة ان هنالك مؤامرة ملكية عظيمة فازدادت تشديداً ومراقبة على الملك٠ ولما حانت ساعة الاعدام اقنع الكاهن الملك بان لا يقابل الملكة فان مقابلته اياها في مثل تلك الحالة مما يبلغ اليأس في نفسهـا الى اقصى حدوده٠ فاقتنع الملك بذلك ٠ ثم انه تناول خاتم زواجه فاوصى بان يدفع اليها واخذ خاتم المملكة الرسمي فاوصى بان يُسلم الى ابنه وولي عهده مع وصيته التي كان قد كتبها٠ وحينئذ قدمت المركبة التي عُينت لنقله الى ساحة الاعدام فنزل الملك لويس السادس عشر من سجنه بعد ذلك العز والسلطان وركب هذه المركبة

وكانت هذه المركبة خضراء اللون وفيها جنديان جالسان في مقدمها ٠ اما الملك فانه جلس مع كاهنه في داخلها ٠ ولما جلسا فيها جرت بهما نحو « ساحة الثورة » حيث نُصبت آلة الاعدام وهي الكليوتين التي تقدم ذكرها

وكانت باريز في تلك الساعة هادئة ساكنة كانها مدينة اموات لا مدينة احياء ٠ وكانت النوافذ والابواب مقفلة ٠ الا ان الشوارع والاسواق كانت غاصة بالناس وكلهم مدججون بالسلاح ومنصتون

وفي الساعة العاشرة وصلت مركبة الملك الى ساحة الاعدام فكان الناس فيها كالبناء المرصوص يزحم بعضهم بعضاً ٠ فنزل الملك من المركبة وبداء يخلع ملابسه ٠ وكان ثابت

الجاش هادئاً لامرين . الاول انه كان شديد التمسك بالدين المسيحي وذلك مما اعطاه قوةغريبة . والثاني انه كان لا يزال يرجو مداخلة بعض الاحزاب في شانه لينقذوه من مصابه كما تقدم . ولما خلع ملابسه تقدم منه الجلادون لربط يديه فقاومهم وقاوموه ولم يتركهم يربطونها حتى تداخل كاهنه واشار عليه بان يدعهم وشانهم . وكانت الطبول تُضرب في هذه الساعة فاشار اليها القائد سانتير فسكتت فالتفت الملك حينئذ وهو على آلة الاعدام وقال بصوت جهوري « ارجو ان يعود دمي خيرًا على فرنسا »

وهنا اختلفت اقوال المؤرخين . ففريق الملكيين يقولون ان القائد امر حينئذ الطبول بان تضرب ثانية لخنق صوت الملك ومنع الحاضرين من سماع كلامه . واذا صحَّ هذا الامر كان عملاً فظيعاً يوازي فظاعة اعدامه . اذ ماذا يخاف البشر من حرية اللسان اذا كانوا قد حكموا على الانسان كله بالاعدام . وهل يجوز لهم ان يضعوا حين اعدام المخلوق حاجزًا بينه وبين الانسانية التي يُبلغ اليها ارادته الاخيرة وبين السماء التي يستغيث بها من ظلم بني جنسه او مما يسميه ظلماً

وفريق الجمهوريين يقولون ان القائد لم يامر حينئذ بضرب الطبول لخنق صوت الملك ولكن لحفظ النظام بين الجمع . فانه لما عزم الملك على الكلام اسرع الناس الى آلة الاعدام يزحمون بعضهم بعضاً لسماع كلامه وكاد يحدث اضطراب عظيم لذلك السبب . ولذلك قُرعت الطبول فعاد كل واحد الى موضعه

ومهما يكن من هذين القولين فقد سُمع الملك يقول ايضاً قبل اعدامه « انني اموت بريئاً . واتمنى ان لا يقع دمي على فرنسا » ولا صحة لما قيل من انه نادى قبل مصرعه « العفو العفو » كما انه لا صحة لقولهم ان كاهنه قال له حينئذ « اصعد الى السماء يا ابن القديس لويس » وقد كان الملك هادئاً رابط الجاش حين صعوده الى آلة الاعدام لانه كان لا يزال مؤملاً بان حزباً عظيماً سيقوم قومة واحدة لانقاذه . ولكنه لما رُبطت عيناه وتحقق دنو اجله صرخ صوتاً عظيماً على ما قالوا واضطرب بين يدي الجلاد . وفي هذا الحين سقطت الآلة وقطعت راس ذلك الملك التعيس .

ولقد اختلف المؤرخون في فائدة هذه الحادثة وفي فظاعتها . فمنهم من قال انها لم تجدِ نفعاً . قال ميشيله المؤرخ المعتدل المشهور « ان الملكية ماتت حين تنكر الملك وفرَّ الى فارين . وسقطت الى حد الدناءة لما بدا من الملك من الاثرة في ١٠ اغسطس . ولكنها بُعثت يوم اعدام الملك وذلك من طريق الشفقة وسفك الدماء » وقال كينه « ناشدتكم

العدل اخبرونا ماذا استفدنا من يوم ٢١ يناير (اي يوم الاعدام) وماذا نتج من سفك هذا الدم »

ومنهم من قال انها جناية على الانسانية ولذلك يسمون الاعضاء الذين قضوا باعدام الملك « قتلة » وهولاء هم انصار الملكية

ومنهم من قال ان ذلك الاعدام كان ضروريًا مع فظاعته . فانه لو بقي الملك في قيد الحياة لكانت اوربا تعتبره دائمًا الحاكم الشرعي لفرنسا وتساعده على العودة اليها . ولا يخفى ان ذلك امر يفضي في فرنسا الى حروب اهلية عظيمة

ولما نُشرت وصية هذا الملك وُجد فيها كلام في غاية الرقة . من ذلك قوله : انه يغفر لجميع الذين اضطهدوه وعذبوه واساءوا اليه . وهو يوصي فيها ولده أن يحذو حذوه اي ان ينسى كل اساءة . ويقول له ايضًا « اذا ابتليت بالملك (اي اذا وقعت في مصيبة الملوك وصرت ملكًا) فاذكر دائمًا انه يجب عليك ان لا تالو جهدًا في خدمة شعبك وابلاغه السعادة » وقد ختم وصيته بقوله « انني اشهد امام الله الذي ساقف لديه بعد حين انني بريء من الذنوب التي رُميتُ بها »

اما الجمهوريون فانهم يردون على هذا القول بقولهم ان الملك يعتبر نفسه دائمًا فوق كل قانون وكل سلطة . فاذا عمل اي عمل فانه يحسب نفسه بريئًا لاعتباره ان ذلك العمل داخل في دائرة سلطته

و بعد اعدام الملك قرر الكونفانسيون الاحتفال في مثل ذلك اليوم من كل عام بعيد وطني ولكن حين قيام الملكية ثانية في فرنسا جعلت حكومتها ذلك اليوم يوم استغفار وصلاة . وقد دُفنت جثة الملك في مقبرة المادلين . ورامت الحكومة الملكية بعد ذلك اقامة كنيسة في الساحة التي اعدم لويس السادس عشر فيها ولكن حكومة الملك لويس فيليب عادت وقررت نصب المسلة المصرية في تلك الساحة وذلك على سبيل الفصل بين الملكيين والجمهوريين . ولما انقضت مائة سنة على يوم هذا الاعدام اي في ٢١ يناير من عام ١٨٩٣ احتفلت الاحزاب المتطرفة الاشتراكية بهذا التذكار احتفالاً اظهرت فيه سرورها فاحتفل الملكيون في مقابلة ذلك احتفالاً اظهروا فيه حزنهم ووداهم لذلك الملك التعيس الذي صُبت على راسه وحده كل النقمات التي اجتمعت في فرنسا على يد ملوكها السابقين

الفصل الخامس والثلاثون

﴿ بعد مقتل الملك ﴾

لمحة تاريخية اجمالية من مقتله الى اليوم

وبعد اعدام الملك حزنت الملكة عليه حزناً شديداً ولبست السواد هي وولداها واخت الملك القتيل . ثم استولى المتطرفون على الحكومة فاساءوا اليها في سجنها وفصلوها عن ولديها واخذوا يعذبونهما . وقد حاول الحزب الملكي خطف الملكة والولدين فلم يقوَ على ذلك لشدة المراقبة عليهم . ثم حوكمت الملكة وحُكم عليها بالاعدام فاعدمت ايضاً ودُفنت مع زوجها . وبعد ذلك بات الفرنسويون حزبين حزب الملكية الساقطة وحزب الجمهورية الناهضة . ثم ساد الاضطراب في الدولة لان الجمهورية كانت في دور الطفولية واشتد الاضطراب حتى قام نابوليون الاول واغتصب الحكم واعاد النظام الى الدولة . ولكن نابوليون من سوء حظه وحظ فرنسا ايضاً كان طماعاً لا يهنأ له عيش الا اذا اخضع اوربا كلها فحارب بروسيا والنمسا وايطاليا وروسيا واسبانيا وانكلترا فغلبها كلها حتى اضطر اوربا الى الاتحاد عليه وكان قد جاء اجله فانتصرت عليه في وقعة واترلو المشهورة . ولما سيق نابوليون اسيراً الى جزيرة القديسة هيلانه اعادت اوربا الى عرش فرنسا الكونت دي بروفنس اخا لويس السادس عشر الذي قُتل وقد سمي (لويس الثامن عشر) . اما ابن لويس السادس عشر الذي كان من حقه الملك فان المهاجرين من فرنسا نادوا به بعد مقتل ابيه ملكاً وهو في السجن وسموه لويس السابع عشر . غير انه توفي بعد حين في السجن وبعضهم يزعم ان انصاره خطفوه منه ووضعوا مكانه صبياً نحيف الجسم فمات هذا الصبي بعد حين

ولما تولى لويس الثامن عشر حدث رد فعل في افكار الملكيين فاخذوا يضايقون الحرية العمومية حتى اضطر هذا الملك الى حلّ البرلمان ارضاء للجمهوريين الذين كانوا يحركون الافكار عليه . وذلك مما يدل على ان اصطدام الافكار والمبادىء بين الملكيين والجمهوريين كان مستمرًا ولم يقف ابداً . وبعد لويس الثامن عشر ولي شارل العاشر وهو اخوه ايضاً وذلك في عام ١٨٢٤ ولكن الجمهوريين والبونابرتيين اثاروا الشعب عليه في عام ١٨٣٠ فتنازل عن الملك ولجاء الى انكلترا . وكان لهذا الملك اخ ثان يدعى فيليب وكان مشهوراً

بميله الى المبادىء الحرة فولاه الشعب الملك وسمي « لويس فيليب » . وفي عام ١٨٤٨ ثار شعب باريز على حكومة لويس فيليب لان رئيسها المسيو كيزو منع بعضاً من انصار حزب الاصلاح من اقامة اجتماع في المدينة فتنازل حينئذ لويس فيليب عن الملك لحفيده الكونت دي باري ولكن الشعب رفض ذلك والف حكومة وقتية نادت مرة ثانية بالجمهورية وهي الجمهورية الثانية

ثم جعل لويس بونابرت ابن اخي نابوليون الاول رئيساً لهذه الجمهورية فاغتصب الحكم ونادى بنفسه امبراطوراً باسم « نابوليون الثالث » لان نابوليون الثاني نجل نابوليون الاول كان قد توفي في النمسا كما هو معلوم . وما زال نابوليون الثالث في عز وجاه حتى حارب الالمانيين في سنة ١٨٧٠ فاسروه في سيدان فنادى الشعب حينئذ في باريز بسقوط الامبراطورية وقيام الجمهورية ثالثة . وهي الجمهورية الثالثة التي لا تزال قائمة في فرنسا الى هذه الايام

الفصل السادس والثلاثون

﴿ اعمال الجمهورية ﴾

وهل تعود الملكية الى فرنسا

ولا يزال النزاع قائماً بين الملكيين والجمهوريين الى هذا الزمن · ولقد قام معهما حزب ثالث وهو حزب البونابرتيين · فصارهم الجمهور بين حفظ الجمهورية وهم الملكيين اعادة الدوق دورليان المطالب بالملك الى عرش فرنسا · وهم البونابرتيين اعادة احد الامراء من اسرة بونابرت الى عرش نابوليون الاول

ولوكان الجمهوريون على اتفاق ووئام لما كان للملكية او الامبراطورية امل في العودة الى الارض الفرنسوية · ولكنهم من سوء حظهم منشقون · فمنهم الجمهوريون المعتدلون ويسمونهم البروجرسيست · والجمهوريون الراديكاليون · والجمهوريون الرادبكاليون الاشتراكيون والجمهوريون الاشتراكيون · والجمهوريون المتطرفون وهم اشد غلوّاً من رفاقهم الاشتراكيين لانهم يطلبون تقسيم الارض والمال بالسواء بين بني الانسان · وطريقتهم الى ذلك القوة والجبر لا المسالمة والاقناع · اي انهم ينتظرون غرة من الهيئة الحاكمة ليغيروا عليها ويقبضوا على ازمتها بمساعدة الشعب وقوته · واما الاشتراكيون المعتدلون فانهم لا يعتمدون على القوة في تحقيق آمالهم ولكن على تقدم البشر وارتقائهم في سلّم المدنية والرفق والعدل البشري · ومتى وصل البشر بحكم الارتقاء المستمر الى هذا الحد من العقل والفضل تنازلوا من تلقاء انفسهم عن مطامعهم وانالوا الشعوب حقوقها في خيرات الارض وسعادة الحياة

اما ما صنعه الجمهوريون في فرنسا فما لا يستطيع عاقل ان ينكره · فانه من المعلوم ان الامبراطورية قد خربت فرنسا واسقطتها الى حد الدول الصغيرة في حربها مع الالمان في سنة ١٨٧٠ · ولقد قال الناس يومئذ انه لا تقوم لفرنسا قائمة بعد تلك الضربة الهائلة · على انهم كانوا يقولون ذلك دون ان يحسبوا حساب الحكومة الجمهورية المبنية دعائمها على الجد والعمل والسلم والحرية · فان الجمهورية قامت بعد ذلك قومة واحدة الى اصلاح شؤون الدولة · فوفت الغرامة الحربية الهائلة وطهرت الارض الفرنسوية من اقدام الاعداء · ثم نظمت الجيش وانفقت عليه دماء القلب فصار مضاهياً لاعظم جيوش العالم بعد تفرق شاع في تلك المعارك المحزنة · ولقد شهد قواد الاجانب في باريز ان المدفع الفرنسوي هو اقوى

المدافع في اوربا في هذا الزمان مع انه كان في زمن الحرب في عهد نابوليون الثالث اضعف من المدفع الالماني بكثير وذلك سبب من اسباب انتصار الالمانيين . وقد انصرفت الجمهورية الى التعليم وانشاء المدارس فجعلت التعليم الزامياً وانفقت عليه قناطير الاموال . ونظمت مالية الدولة وجعلتها على قواعد ثابتة . ومدت السكك الحديدية في بلادها ونشطت الزراعة والتجارة والصناعة تنشيطاً لم يسبق له مثيل فيها . واكتسبت ثقة دولة روسيا العظيمة وحالفتها فانتقلت فرنسا بهذه المحالفة من درجة الدول الثانية التي وضعتها فيها حربها مع الالمان الى الدرجة الاولى واستعادت سمعتها وعظمتها القديمة . واكثر من ذلك كله انها انشأت لفرنسا مستعمرات واسعة تزيد مساحتها عن مساحة البلاد الفرنسوية عدة مرات . وهذا نهاية في النشاط والجد والعمل . ولو ان ملكاً او امبراطوراً قد صنع كل ذلك لفرنسا بدلاً من حكومتها الجمهورية لطار اسمه في الجهات الاربع وسماه الناس في كل اقطار الارض « ملكاً عظيماً »

وهذا هو السبب الذي يجعل الشعب الفرنسوي محباً للحكومة الجمهورية وناصراً لها فضلاً عما يجده فيها من الحرية المطلقة التي تنطبق على امياله واهوائه . ولقد قال فريق من الملكيين الذين يئسوا من عودة الملكية الى بلادهم : ان الذي ينكر ميل الشعب الفرنسوي الى الجمهورية ويظن ان الملكية او الامبراطورية اصلح لحكومته بعد الانقلاب العظيم الذي حدث في اخلاقه وعاداته وامياله يخطىء خطاء عظيماً

على ان الملكية او الامبراطورية قد تعود الى فرنسا في حالة واحدة : وهي انكسار فرنسا انكساراً شديداً في حربها مع احدى الدول كما قال المرحوم فليكس فور . ففي هذه الحالة تلقي الامة بنفسها بين ذراعي كل من يروم انقاذها . ولكن الحكومة الجمهورية ليست حكومة طياشة وخفة لتقذف نفسها في حرب تخرج منها مكسورة الجناح كما صنعت الامبراطورية الثانية بل هي حكومة تانٍ ورزانة وحرية في القول والعمل . ولا سلطة الرجل واحد عليها يدفعها حيثما يريد قضاء لاغراضه وانفاذاً لمطامعه . فهي حكومة الشعب بالشعب من اجل الشعب كما يقول الجمهوريون . وهم يعتقدون ان هذه الطريقة في الحكومة ستكون طريقة الحكومات في جميع الامم في مستقبل الزمان

الفصل السابع والثلاثون

﴿ الخاتمة ﴾

هذا ومما تقدم يظهر للقارىء ان القلم قد هجر اسلوب الرواية الى اسلوب التاريخ في تفصيل حوادث هذه الثورة العظيمة واننا لم نعتمد على اسكندر ديماس في الفصول الاخيرة . وبما اننا قد فرغنا من هذا التفصيل وصار في ذهن القارىء صورة اجمالية للحوادث التي تقدم ذكرها فقد وجب علينا ان نتعقب ابطال روايته كما تعقبنا ابطال التاريخ لنقف على ما وقع لهم قبل ختام هذا الموضوع . ومما لا يحتاج الى بيان اننا لولا اهمية التاريخ في هذه الاجزاء الاربعة وما فيها من وصف الحالة الاجتماعية في ذلك الزمن العظيم لما كان لنا صبر على الاهتمام بشؤون مختصة بالروايات التخيلية التي لا علاقة لها باحوالنا الاجتماعية .

اما خاتمة الرواية فاليك خلاصتها

لما سقطت الملكية واعدم الملك ذهب الدكتور جيلبار الى احدى القرى وانفرد فيها يندب حظ الملكية ويتامل في مجرى النواميس الطبيعية التي لا ترد . وكثيرًا ما كان يقول في نفسه : لو ان لويس السادس عشر كان رجلاً مقداماً لقدر بالعقل والاعتدال والنشاط على انقاذ عرشه

واما الكونتس دي شارني فانها اخذت ابنها سيباستيين الى منزلها باذن من الدكتور جيلبار وعاشت مسرورة باجتماعها به وحزينة لوفاة حبيبها وزوجها اوليفيه . ويحق لهذه المرأة المحبة التي لم يدخل الحب قلبها الا لعذابها ان تتمثل بقول ذلك الحكيم الذي قال : ان الانسان الذي كان في خاطره امران يروم تحقيقهما ثم لم يتحقق منهما الا امر واحد لا يجب ان يحسب نفسه تعيساً فانه كثير على الانسان ان تتحقق نصف آماله

واما ايزيدور دي شارني فقد تقدم انه قتل في سبيل الملك حين فراره وهو يقول « مسكينة انتِ يا كاترين » . وفي الواقع ان هذا المصاب كان شديدًا على حبيبته وزوجته كاترين لانها كانت قد هجرت بيت ابيها من اجله . ولما وجدت كاترين نفسها وحيدة فريدة في قلب باريز اسودت الدنيا في عينيها خصوصاً لانها كانت قد صارت اماً وصار على يدها ولد يجب عليها القيام عليه . وكانت الاعوام قد مرّت عليها وعلى ابنها بيلو فغيرتها ولم تغيره . ذلك ان هذا الاب الصارم الحريص على شرفه وشرف عائلته ال على

نفسه ان لا يرى بعد ذلك اليوم وجه الابنة الطائشة التي تركت بيت ابيها من اجل شاب اغواها خصوصاً لان هذا الشاب من النبلاء الذين كان هو يحاربهم . وكان غليل بيلو قد اشتفى من طبقة النبلاء ولم يبقَ له من ثار عندهم لانه هو ورجال الثورة قد اسقطوهم عن عروشهم الا انه مع ذلك كان لا يطيق رؤية كاترين . وكانت كاترين تعرف اخلاقه ولذلك لم تطرح نفسها عليه . ومما زاد في ياسها وحزنها بعد موت زوجها وحبيبها وفاة امها التي لقيت اجلها من حنينها اليها ولهفتها عليها . ولقد ماتت هذه الام المسكينة واسم ابنتها كاترين بين شفتيها

بقي صاحبنا بيتو . وكان بيتو قد شبَّ في هذه الاعوام وصار رجلاً . وبما انه كان جريئاً وصاحب قبضة قوية فقد تقدم في اثناء الحوادث الماضية وصار من انصار الثورة الاشداء . الا انه مع تقدمه وارتقائه كانت في نفسه غصة شديدة . وهذه الغصة هي حب كاترين . ولذلك لما سمع بان زوجها وحبيبها ايزيدور دي شارني قد لقي حتفه اسرع الى منزلها في باريز ليعزيها . ثم انتهى الامر بينهما بما لم يحلم به بيتو في المنام وهو رضى كاترين بان تقترن به وتتخذه عوناً وسنداً

وبناء على ذلك عاد بيتو مع كاترين الى قرية عمته التي تقدم ذكرها في مقدمة الرواية . وكان قد علم بان عمته قد ماتت ولم تترك له شيئاً . فلما دخل مع كاترين الى بيتها جلس على الكرسي المعروف من القارىء وجلست كاترين بازائه . ثم سحب بيتو هذا الكرسي قليلاً ليدنو من كاترين فسمع في داخله صوتاً يحكي صوت احتكاك قطع النقود . ففحص الكرسي متانياً فوجد ذلك الصوت حقيقياً فاخذ آلة وفتح جوف الكرسي فوجد فيه كومة من الذهب

فطار صواب بيتو حين وقع نظره على الذهب . ثم عاد اليه رشده فعلم ان عمته كانت تخزن المال الذي تجمعه في هذه الخزانة السرية

ولما عدَّ بيتو وكاترين تلك الكومة الذهبية وجدا انها تزيد على الالفي قطعة . فقال بيتو رحمك الله ياعمتي وغفر لك بخلك في حياتك فانك كنتِ كريمة في مماتك . ثم جمع الذهب وابتاع به مزرعة وعاش فيها مع حبيبته وزوجته كاترين هنيء البال قرير العين وبذلك انتهت هذه الحادثة بالزواج شان كل قصة كما قال موليير

تمت